من شعـر علي الحصـري

بقلم : الشاذلي بويحيى

كنّا أشرنا في نقدنا (1) للكتاب الذي وضعه م. المرزوقي وج. بن الحاج يحيى في حياة علي الحصري وتراثه الأدبي بعنوان « أبو الحسن الحصري » أنّ ما جمـع به من شعر علي الحصري القيرواني على غزارته إنما هو قليل من كثير لإعراض الشاعر نفسه عمّا كان قاله من شعر قبل وفاة ابنه عبد الغنيّ ثم لعبث أيدي الناس والزمان بمعظم هذا الشعر . كما أشرنا إلى أن أشعارا لعلي الحصري موجودة في المخطوطات وفي المطبوعات أيضا لم يضمّها هذا الكتاب (2) . وذكرنا أن من أسباب هذا النقص عدم رجوع المؤلفين إلى بعض المصادر العربية والأعجمية حيث توجد أشعار لعلي الحصري أو تنبيه إلى مظانّها .

فمن ذلك قطعتان خطيرتان إحداهما مطبوعة لكن لم يضمّها كتاب « أبو الحسن الحصري » والأخرى شهيرة قسم منها منشور بهذا الكتاب عن « ذخيرة » ابن بسّام وقسم آخر منها لم يزل مخطوطا .

---

(1) « حوليات الجامعة التونسية » عـدد 1 ص 125 ـ 141

(2) ص 127 حيث كتبنا : « فكانت هذه المصيبة في ابنه سببا في ضياع اشعار خمسين سنة تقريبا سحر بها العقول ـ على حد قوله هو ـ فـرزيء فيها الادب العـربي ولم يبق منهـا الا شذرات مبعثرة في المخطوطات والمطبوعات جهد المؤلفان في جمع شيء منها (بالقسم المسمى « المتفرقات » من ص 103 الى ص 149 من كتاب « أبو الحسن الحصري ») »

أمّا الأولى فهي موشّح تامّ إذ يحتوي على ستّة أقفال وخمسة أبيات أورده الصفدي في كتاب « توشيع التوشيح » مطلعه :

مَنْ عَلَّقَ القُرْطَا فِي أُذُنِ الشِّعْرَى
وَأَلْحَفَ المِرْطَا الغُصْنَ النَّضْرَا

والكتاب مطبوع (3) . فنقتصر هنا على الإشارة إلى هذه القطعة . وأهمّيّة هذا الموشّح أنّه النموذج الأوحد الموجود – فيما نعلم – ممّا ألّفه علي الحصري في هذا الفنّ وقد عدّه ابن سناء الملك من أصحاب الموشّحات (4).

أمّا القطعة الثانية فهي تائية الحصري التي يتشوّق فيها إلى القيروان بعد نزوحه عنها إثر زحف بني هلال . وهي قصيدة مشهورة يورد منها ابن بسّام ثمانية وعشرين بيتا في رثاء القيروان يزيد إليها ثلاثة أبيات قال إنّها في المدح (5) . فيصير عددها واحدا وثلاثين بيتا وهو ما نقله عنه ناشرا كتاب « أبو الحسن الحصري » (6) ذاكرين في تعليقين لهما (7) ثلاثة أبيات زادها حسن حسني عبد الوهاب في « المنتخبات » بدون ضبط الصحيفة ولا الطبعة من هذا الكتاب. فالذي زاده ح.ح. عبد الوهّاب في كتابه « المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » طبعة القاهرة سنة 1944 ثلاثة أبيات (8) لم ترد في « الذخيرة » . أمّا جملة ما انتخبه ح.ح. عبد الوهّاب فهي ستّة أبيات من السبعة التي جاءت في كتاب « معالم الإيمان » (9) ترك منها البيت الخامس وهو مفقود في رواية

(3) ط . دار الثقافة . بيروت سنة 1966 ص 151 – 154 والملاحظ ان هذا الكتاب طبع بعد ظهور « ابو الحسن الحصري »

(4) دار الطراز ص 39

(5) الذخيرة . القسم الرابع المجلد الاول ص 214 – 215

(6) ص 125 – 127

(7) ص 125 تعليق عدد 2 وص 126 تعليق عدد 3

(8) ص 84 وهي البيت الثاني والخامس والسادس من جملة ستة ابيات يختارها ح. ح. عبد الوهاب من هذه القصيدة

(9) ج 1 ص 21 . لم ينتبه ناشرا « أبو الحسن الحصري » الى هذه القطعة على ان « معالم الايمان » من مراجعهما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« الذخيرة » وقارن بين الروايتين فجاءت منتخباته مزيجا منهما . والذي جاء في « معالم الإيمان » ممّا لم يرد في « الذخيرة » ولا في « أبو الحسن الحصري » أربعة أبيات هي الثاني والخامس والسادس والسابع فيكون بذلك عدد المطبوع المعروف إلى حدّ الآن من هذه القصيدة خمسة وثلاثين بيتا . ثم إن قطعة وافرة من هذه القصيدة توجد بمجموعة خطّيّة في مكتبة الاسكوريال Escurial وهي التي يشير اليها بروكلمان Brockelmann وينسبها غلطا إلى إبراهيم الحصري (10) . والحقّ أنّ الغالط هو ديرنبورغ Derenbourg مصنّف فهرس مخطوطات الاسكوريال العربية حيث يعرّف بهذه القطعة بقوله : « قصيدة عن القيروان تنسب إلى أبي إسحاق الحصري من مواليد هذه المدينة » بينما جاء في المخطوطة بعد الحمدلة ما نصّه : « قال بعض المغاربة يتشوّق إلى القيروان وقيل هو الحصري » فتبع بروكلمان ما ذهب اليه ديرنبورغ فنسبها إلى أبي إسحاق إبراهيم الحصري وهو — كما أثبتنا في غير هذا (11) — قد مات سنة 413 قبل خراب القيروان بما يقرب من أربعين سنة فلم يرثها ولم يتشوّق إليها ثم إنّ القصيدة ينسبها ابن بسّام والشريشي والدبّاغ وابن ناجي الى علي الحصري فلا مجال للشك في ذلك .

وقد اطّلعنا على هذه القطعة في مكتبة الاسكوريال بمجموعة خطّيّة تحت عدد 408 جاءت فيها من الورقة 60 وجه إلى الورقة 61 ظهر . وعدد أبياتها ثمانية وخمسون 58 بيتا ليس من بينها بعض ما جاء في رواية « الذخيرة » . فالقصيدة إذن ما تزال ناقصة .

ووجدنا نسخة أخرى مخطوطة من هذه القصيدة بمكتبة الاسكوريال أيضا تحت عدد 467 وهي تعدّ أربعين 40 بيتا فحسب منها ما انفردت به دون المصادر الأخرى ويكثر الاختلاف بين أبياتها وأبيات المخطوطة الأولى .

---

(10) تاريخ الادب العربي ج 1 ص 267 رقم 4 . والذيل ج 1 ص 472 رقم 4

(11) حوليات الجامعة التونسية . العدد الاول ص 9 — 18

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ووردت القطعة في هذه المجموعة المخطوطة الثانية بعد قصيدة « يا ليلَ الصبّ » وهما منسوبتان هناك لغير علي الحصري . فقد جاء في تقديم « يا ليل الصبّ » بالورقة 22 وجه ما نصّه : « أنشدني الشيخ أبو بكر يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن عمر بن شبل رحمه الله قال أنشدني أبو عبد الله محمد بن علي بن موسى المعلّم بالقدس المحروس سنة 462 قال أنشدني أبو الحسن علي بن أحمِد بن عبد العزيز الميرقي (كذا) اللّغوي الأنصاري لنفسه يمدح الشيخ الفقيه أبا الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر الشافعي المقدسي :

يا ليل الصبّ متى غده أقيام الساعة موعده ...»

وبعد انتهاء أبيات « يا ليل الصبّ » (ورقة 25 ظ) تأتي « التائيّة » التي نحن بصدد الحديث عنها وتقديمُها كتقديم « يا ليل الصبّ » بهذه العبارة : « وأنشدنا الشيخ أبو بكر بن شبل قال أنشدني محمد بن علي المعلم بالقدس قال أنشدني علي بن أحمد بن عبد العزيز المقدّم ذكره لنفسه » (12) وهذا الشاعر الذي تنسب اليه هنا قصيدتا الحصري شاعر من جزيرة ميورقة توفي ببغداد سنة 477 حسب ياقوت (13) . وهذا التاريخ مع ضبط تاريخ إنشاد « يا ليل الصبّ » سنة 462 ومحلّ إنشادها بالقدس واسم الممدوح بها من شأنه أن يدخل بلبلة في الأذهان في نسبة القصيدتين لولا الشبه الكبير بين اسم هذا الشاعر واسم الحصري فلعلّ بعض النسّاخ ممّن يعرف الشاعر الميورقي ولا يعرف الحصري اشتبه عليه اسم عبد الغنيّ في نصّ تقديم « يا ليل الصبّ » فظنّه عبد العزيز المعروف لديه فزاد ما زاد من ضبط الاسم وسنة الإنشاد ومكانه . على أنّنا لا ندّعي بهذا فضّ المشكل نهائيا . وهو ليس من غرضنا هنا .

(12) ورقة 25 ظ . والملاحظ ان عبارة « المقدم ذكره » زيدت على النص بالمخطوطة فجاءت تحت كلمة « لنفسه » اثر كلمة « العزيز »

(13) ارشاد الاريب ج 4 ص 722

وجدير بالملاحظة أنّ الأبيات الثلاثة التي يزيدها ابن بسّام قائلا إنّها في المدح غير موجودة في هاتين المخطوطتين . فهل هذه الأبيات من تلك القصيدة وإن اتّفقت وإيّاها في البحر والقافية ؟ أي هل أنّ القصيدة قيلت في المدح أم هي مجرّد تشوّق الشاعر إلى وطنه المفقود ؟ ذلك ما قد تثيره هذه القصيدة من المشاكل ممّا لا سبيل إلى الجواب عنه الآن .

وفي ما يلي ننشر ما اجتمع لدينا من هذه القصيدة مع الإشارة في الهامش إلى اختلاف الروايات عمّا نثبته منها . وجملته 69 بيتا منها 58 بمخطوطة الأسكوريال خ أ و40 بمخطوطة الأسكوريال خ ب و 31 بالذخيرة وأبو الحسن الحصري و7 بمعالم الايمان و6 بالمنتخب المدرسي و3 بشرح الشريشي على مقامات الحريري (14) .

[بسيط]

1 فِـي كُلِّ يَوْمٍ مَعَ الْأَحْبَابِ لَذَّاتُ
فَلَيْسَ فِـي الْعَيْشِ مَسْرُورٌ إِذَا فَـاتُوا

2 فَاسْتَغْنِمِ الْوَصْلَ مِنْ خِلٍّ تُسَرُّ بِهِ
وَاصْبِرْ إِذَا أَخَذَتْ مِنْكَ الْمُلِمَّاتُ

---

(14) نستعمل الرموز التالية للاشارة الى المصادر :
خ أ : مخطوطة الاسكوريال رقم 408 ورقة 60 و . الى 61 ظ
خ ب : مخطوطة الاسكوريال رقم 467 ورقة 25 ظ . الى 27 و
الذخيرة : القسم الرابع . المجلد الاول من كتاب ابن بسام ص 214 – 215
معالم الايمان : الجزء الاول من معالم الايمان ط . تونس 1320 هـ . ص 21
شرح الشريشي : شرح مقامات الحريري للشريشي ط . القاهرة 1372 هـ . ج 3 ص 123
المنتخب : المنتخب المدرسي لح . ح . عبد الوهاب ط . القاهرة 1944 ص 84
ابو الحسن : كتاب « أبو الحسن الحصري » ص 125 – 126

والملاحظ ان ترتيب ابيات القصيدة في هذه المصادر يختلف احيانا . واعتمادنا غالبا على ترتيب « خ أ » وروايته الا في ما فضلناه عليها من روايات اخرى وفي ما لم يرد به من ابيات وبينا كل ذلك في الحواشي . اما رواية « أبو الحسن » فهي مطابقة لرواية « الذخيرة » اذ هي نقل عنها . كما اشرنا جنب الابيات يسارا الى صفحات « خ أ »

بيت عدد 1 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « وليس في الدهر مسرور اذا ماتوا »
بيت عدد 2 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « من الـف »

3 وَكُلُّ خِلٍّ وَإِنْ دَامَتْ مَسَرَّتُهُ
لاَ بُدَّ أَنْ تَتَقَاضَاهُ الْمَسَاآتُ

4 لاَ تَنْأَ مُبْتَغِياً قُوتاً تَعِيشُ بِهِ
فَفِي أَحَادِيثِ مَنْ تَهْوَاهُ أَقْوَاتُ

5 وَلاَ تَقُلْ تَشْمُتُ الْأَعْدَاءُ مُحْتَضَرِي
إِنَّ اغْتِرَابَكَ أَيْضاً فِيهِ إِشْمَاتُ

6 وَمَا عَسَى حَرْبُ صِفِّينٍ بِحَيْثُ تَرَى
مَنْ يَصْطَفِي وَالسُّنُونَ الْيُوسُفِيَّاتُ

7 مَوْتُ الْكِرَامِ حَيَاةٌ فِي مَوَاطِنِهِمْ
فَإِنْ هُمُ اغْتَرَبُوا مَاتُوا وَمَا مَاتُوا

8 كُنَّا وَكَانَ لَنَا فِي مَا مَضَى وَطَنٌ
لَكِنَّهَا أَسْهُمُ الدُّنْيَا مُصِيبَاتُ

9 أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ إِخْوَاناً مَبُوؤُهُمْ
فِي الْقَلْبِ نَارُهُمُ لِلْعَيْنِ جَنَّاتُ

10 تَطُولُ أَوْقَاتُ يَوْمِي بِي وَأَحْسِبُهَا
لِفَقْدِهِمُ سَنَوَاتٍ وَهْيَ سَاعَاتُ

11 أَكُلَّمَا قُلْتُ فِي قُرْبِ الدِّيَارِ عَسَى
أَبَتْ عَلَيَّ بِحُكْمِ الْبَيْنِ هَيْهَاتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 3 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « فكل حر وان طال الزمان به »
بيت عدد 4 : البيت في خ أ
بيت عدد 5 : البيت في خ أ
بيت عدد 6 : البيت في خ أ
بيت عدد 7 : البيت في خ أ وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن
بيت عدد 8 : البيت في خ أ وفي خ ب
بيت عدد 9 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « أحبابا ... للقلب نار وهم »
بيت عدد 10 : البيت في خ أ و في خ ب حيث « فاحسبها »
بيت عدد 11 : البيت في خ أ وفي خ ب

12 أَمْ هَلْ يَصِيفُ وَيَشْتُو الْوَجْدُ فِي كَبِدِي
وَأَهْلُ ذَاكَ الصَّفَاءِ الْمَحْضِ أَشْتَاتُ

13 مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ فَوَا أَسَفِي
مَتَى يَضُمُّهُمُ لِلْوَصْلِ مِيقَاتُ

14 تَفَرَّقُوا كَدُمُوعِي عِنْدَ ذِكْرِهِمُ
فَلَيْتَ شِعْرِي كَمَا قَدْ بِتَّ هَلْ بَاتُوا

15 يَا أَهْلَ وِدِّيَ لاَ وَاللَّهِ مَا انْتَكَثَتْ
عِنْدِي عُهُودٌ وَلاَ ضَاعَتْ مَوَدَّاتُ

16 يَا أَهْلَ وِدِّيَ هَلْ فِي الْقُرْبِ مِنْ طَمَعٍ
فَتَشْتَفِي بِكُمُ هَذِي الصَّبَابَاتُ 60 ظ

17 لَئِنْ بَعُدْتُمْ وَحَالَ الْبَحْرُ دُونَكُمُ
لَبَيْنَ أَرْوَاحِنَا فِي النَّوْمِ زَوْرَاتُ

18 وَلَمْ أَذُقْ نَوْمَةً لَوْلاَ خَيَالُكُمُ
وَأَيْنَ مِنْ نَازِحِ الْأَوْطَانِ نَوْمَاتُ

19 إِذَا اعْتَلَلْنَا تَعَلَّلْنَا بِذِكْرِكُمُ
لَوْ أَحْسَنَتْ بُرْءَ عِلاَّتٍ تَعِلاَّتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 12 : البيت في خ أ حيث « أم لا » وفي خ ب حيث « لم لا يقيظ » ورأينا اثبات « هل » عوض « لا »

بيت عدد 13 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « فواسفا متى يعمّهم »

بيت عدد 14 : البيت في خ أ وفي خ ب

بيت عدد 15 البيت في خ ب حيث « يا هل ودي »

بيت عدد 16 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « يا هل ودّي ... فتشتفي منكم » وفي الذخيرة وابو الحسن وفي كليهما « يا أهل ودّي لا والله ما انتكثت عندي عهود ولا ضاقت موّدات »

بيت عدد 17 : البيت في خ أ وفي خ ب

بيت عدد 18 : البيت في خ أ حيث « نوما » فرأينا زيادة تاء الواحدة . وفي خ ب حيث « ولم نذق ليلة » وفي الذخيرة وأبو الحسن وفي كليهما « ما نمت الا لكي القى خيالكم »

بيت عدد 19 : البيت في خ أ وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن

20 مَا ذَا عَلَى الرِّيحِ لَوْ أَهْدَتْ تَحِيَّتَنَا
إِلَيْكُمُ مِثْلَمَا تُهْدَى التَّحِيَّاتُ

21 لَنَا قُلُوبٌ شَجِيَّاتٌ لِفَقْدِكُمُ
فَهَلْ لَكُمْ بَعْدَنَا هَذِي السَّجِيَّاتُ

22 أَصْبَحْتُ فِي غُرْبَةٍ لَوْلاَ مُكَاتَمَتِي
بَكَتْنِيَ الْأَرْضُ فِيهَا وَالسَّمَاوَاتُ

23 لاَ أَدَّعِي أَنَّ لِي فِيهَا أَخَا ثِقَةٍ
سِوَى بُكَاءٍ لِقَلْبِي فِيهِ رَاحَاتُ

24 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا زَالَتْ لَهُ نِعَمٌ
تَتْرِي عَلَيَّ وَإِنْ قَلَّتْ مَسَرَّاتُ

25 هِيَ الْأَمَانِيُّ لاَ جُحْدٌ لَدَيَّ بِهَا
فَإِنْ ذَكَرْتُكُمُ فَهْيَ الْمَنِيَّاتُ

26 أَطْرَبْتُمُونِي فَمَا أَدْرِي أَذْكُرُكُمُ
أَمْ غُنِّيَتْ مِنْ بَدِيعِ الشِّعْرِ أَبْيَاتُ

27 هَبْ مُقْلَتِي غُطِّيَتْ بِالدَّمْعِ عَنْ نَظَرِي
فَمَا لِسَمْعِيَ لاَ تُلْهِيهِ أَصْوَاتُ

بيت عدد 20 : البيت في خ أ وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 21 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « لنا عيون سخينات بغيركم » وهو في خ ب قبل البيت السابق

بيت عدد 22 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « بكت لي » وفي الذخيرة وأبو الحسن وفي كليهما « في غربتي »

بيت عدد 23 : البيت في خ أ وفي خ ب

بيت عدد 24 : البيت في خ أ وفي خ ب

بيت عدد 25 : البيت في خ أ حيث « لا حجدا لدي بها فاذكرتكم »

بيت عدد 26 : البيت في خ أ

بيت عدد 27 : البيت في خ أ وفي خ ب

28 يَكَادُ يُحْيِي الرُّبَى لَوْلاَ حَرَارَتُهُ
دَمْعِي وَتُصْبِحُ فِيهِ مِنْهُ أَنْبَاتُ

29 كَأَنَّنِي لَمْ أَذُقْ بِالْقَيْرَوَانِ جَنًى
وَلَمْ أَقُلْ «هَا» لِإِخْوَانِي وَلاَ «هَاتُوا»

30 وَلَمْ تَشُقْنِي الْخُدُودُ الْحُمْرُ فِي يَقَقٍ
وَلاَ الْعُيُونُ الْمِرَاضُ الْبَابِلِيَّاتُ

31 أَبَعْدَ أَيَّامِنَا الْبِيضِ الَّتِي سَلَفَتْ
تَرُوقُنِي غَدَوَاتٌ أَوْ عَشِيَّاتُ

32 حَتَّى مَتَى تَقْتَضِي الْعَادَاتُ أَنْفُسَنَا
وَلاَ يُطَاقُ إِلَى الْأَوْطَانِ عَوْدَاتُ

33 أَنَّى يُطِيقُ رَهِينُ الشَّامِ مُنْصَرَفاً
وَبِالشَّآمِ لَهُ أَيْضاً لُبَانَاتُ

34 أَمُرُّ بِالْبَحْرِ مُرْتَاحاً إِلَى بَلَدٍ
تَمُوتُ نَفْسِي وَفِيهَا مِنْهُ حَاجَاتُ

35 وَأَسْأَلُ السُّفْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ طَمَعاً
وَأَنْثَنِي وَبِقَلْبِي مِنْهُ لَوْعَاتُ

بيت عدد 28 البيت في خ ب

بيت عدد 29 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « كانني لم أنل وصل الحبيب بها » وفي الذخيرة وأبو الحسن حيث « ولم أقل ها لاحبابي »

بيت عدد 30 : البيت في الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 31 : البيت في خ أ حيث « تروعني » وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 32 : البيت في خ أ وفي خ ب

بيت عدد 33 : البيت في خ أ

بيت عدد 34 : البيت في خ أ وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 35 : البيت في الذخيرة وأبو الحسن

36 هَلْ مِنْ رِسَالَةِ حِبٍّ أَسْتَعِينُ بِهَا
عَلَى سَقَامِي فَقَدْ تَشْفِي الرِّسَالَاتُ

37 أَلَا سَقَى اللَّهُ أَرْضَ الْقَيْرَوَانِ حَيًّا
كَأَنَّهُ عَبَرَاتِي الْمُسْتَهِلَّاتُ /61 و

38 وَكَفَّ عَنْهَا أَكُفَّ الْمُفْسِدِينَ لَهَا
وَلَا عَدَتْهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ عَادَاتُ

39 فَإِنَّهَا لِدَةُ الْجَنَّاتِ تُرْبَتُهَا
مِسْكِيَّةٌ وَحَصَاهَا جَوْهَرِيَّاتُ

40 إِلَّا تَكُنْ فِي رُبَاهَا رَوْضَةٌ أُنُفٌ
فَإِنَّمَا أَوْجُهُ الْأَحْبَابِ رَوْضَاتُ

41 أَوْلَا يَكُنْ نَهَرٌ عَذْبٌ يَسِيلُ بِهَا
فَإِنَّ أَنْهَارَهَا أَيْدٍ كَرِيمَاتُ

42 أَرْضٌ أَرِيضَةٌ اقْطَارٌ مُبَارَكَةٌ
لِلَّهِ فِيهَا بَرَاهِينٌ وَآيَاتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 36 : البيت في خ أ حيث « على مقامي » وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 37 : البيت في خ أ وفي الذخيرة وأبو الحسن وفي معالم الايمان حيث « عبراتٌ مستهلاتٌ » وفي شرح الشريشي والمنتخب وفي كليهما « أيا سقى »

بيت عدد 38 : البيت في خ أ وفي معالم الايمان والمنتخب حيث « أيادي المفسدين »

بيت عدد 39 : البيت في الذخيرة وأبو الحسن وفي خ أ حيث « كأنها أوجه الأحباب » وفي معالم الايمان حيث « فانها أوجه الأحباب » وفي شرح الشريشي حيث « كأنها لذة الجنات » وفي المنتخب حيث « فانها لذة الأحباب »

بيت عدد 40 : البيت في خ أ حيث « فانها أوجه » وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 41 : البيت في خ أ وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 42 : البيت في خ أ وفي شرح الشريشي وفي الذخيرة وأبو الحسن وفي معالم الايمان والمنتخب وفي كليهما « أرض بها الخير مجموع مباركة » وخالفنا المطبوعات في شكل صدر البيت على ان يسقط قطع الهمزة في « أقطار » لضرورة الوزن

43 حَاشَ الْبِقَاعَ الثَّلاَثَ الطَّيِّبَاتِ وَقُلْ
خَيْرُ الْبِقَاعِ تُصَدِّقْكَ الشَّهَادَاتُ

44 كَمْ مِنْ وَلِيٍّ بِهَا لِلَّهِ مُرْتَقِب
حَيَاتُهُ كُلُّهَا نُسْكٌ وَإِخْبَاتُ

45 وَكَمْ إِمَامِ هُدًى فِي مُرْتَقَى مَلِك
قَدْ تَوَّجَتْهُ الْمَعَالِي وَالْمَهَابَاتُ

46 أَقْلاَمُهُ أَمَنٌ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ
مِنَ الْعَمَى وَالْفَتَاوَى وَالْقِرَاآتُ

47 وَكَمْ بِهَا مِنْ ذَكِيِّ الطَّبْعِ قَدْ فَضَحَتْ
قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ مِنْهُ الْفَصَاحَاتُ

48 [وَ] فِي سَمَاءِ الْمَعَانِي تَحْتَ أَخْمَصِهِ
بِكُلِّ فَخْرٍ إِذَا مَا قَالَ إِنْصَاتُ

49 لاَ يَشْمِتَنَّ بِهَا الْأَعْدَاءُ إِنْ رُزِئَتْ
إِنَّ الْكُسُوفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ

50 وَلَمْ يَزَلْ قَابِضُ الدُّنْيَا وَبَاسِطُهَا
فِي مَا يَشَاءُ لَهُ مَحْوٌ وَإِثْبَاتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 43 : البيت في خ أ

بيت عدد 44 : البيت في خ أ وفي معالم الايمان والمنتخب وفي كليهما « لله متقيا »

بيت عدد 45 : البيت في خ أ وفي معالم الايمان والمنتخب

بيت عدد 46 : البيت في خ أ حيث « أقلامه أمل » . ولعل الصواب ما أثبتنا

بيت عدد 47 : البيت في خ أ

بيت عدد 48 : البيت في خ أ حيث « في سماء المعالي » فزدنا الواو للوزن وأثبتنا « المعاني » عوض « المعالي » ويبقى البيت غامض المعنى

بيت عدد 49 : البيت في خ أ وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 50 : البيت في خ أ وفي الذخيرة وأبو الحسن

51 إِنَّا إِلَى اللَّهِ سِرَّ الْحَاسِدُونَ بِمَا
أَصَابَنَا وَاشْتَفَتْ مِنَّا الْعَدَاوَاتُ

52 اَلْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ لَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ
حَلَّتْ بِهِمْ لِبَنَاتِ الدَّهْرِ حَالاَتُ

53 كَذَا اللَّيَالِي فَلاَ تُنْكِرْ عَجَائِبَهَا
لِلشَّرِّ فِيهَا كَمَا لِلْخَيْرِ كَرَّاتُ

54 فَإِنْ نَظَرْتَ لِتَجْرِيبٍ فَأَكْثَرُ مَنْ
يَشْكُو الزَّمَانَ أَلِبَّاءٌ وَسَادَاتُ 61 ظ

55 تَأَنَّ وَاغْفِرْ لِهَذَا الدَّهْرِ زَلَّتَهُ
فَقَدْ تَكُونُ مَعَ الأَحْلاَمِ زَلاَّتُ

56 وَاصْبِرْ عَلَى الْبُؤْسِ فَالدُّنْيَا بِذَا عُرِفَتْ
مَحَامِدُ الْعَيْشِ تَقْفُوهَا مَذَمَّاتُ

57 فِي قُدْرَةِ اللَّهِ أَنْ يَقْضِي بِفُرْجَةِ مَنْ
ضَاقَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا الْمَكَانَاتُ

58 هَلْ مَطْمَعٌ أَنْ تُرَدَّ الْقَيْرَوَانُ لَنَا
وَصَبْرَةٌ وَالْمُصَلَّى وَالْحَنِيَّاتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 51 : البيت في خ أ
بيت عدد 52 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « حالت بهم »
بيت عدد 53 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « فلا تنكر تقلّبها »
بيت عدد 54 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « وان نظرت »
بيت عدد 55 : البيت في خ أ وفي خ ب
بيت عدد 56 : البيت في خ أ وفي خ ب، حيث « فاصبر »
بيت عدد 57 : البيت في خ أ حيث « بفرحة » بالحاء المهملة وفي خ ب حيث « ان يدني أحبة من » . وهو آخر بيت به
بيت عدد 58 : البيت في خ أ حيث « تداني (او : تراني) القيروان » وفي الذخيرة وأبو الحسن حيث « والمعلى فالحنيات »

59 مَا أَنْ سَجَا اللَّيْلُ إِلَّا زَادَنِي شَجَناً
فَأَتْبَعَتْ زَفَرَاتِي فِيهِ أَنَّاتُ

60 وَلاَ تَنَفَّسَتْ أَنْفَاسَ الرِّيَاضِ ضُحًى
إِلَّا بَدَتْ زَفَرَاتٌ مُسْتَكِنَّاتُ

61 هَذَا وَلَمْ تَشْجُ قَلْبِي لِلرَّبَابِ رُبًى
وَلاَ تَقَضَّتْهُ مِنْ لُبْنَى لُبَانَاتُ

62 وَكَمْ دُعِيتُ لِبُسْتَانٍ فَجَدَّدَ لِي
شَوْقاً وَلَوْ كَانَ فِي مَغْنَاهُ سَلْوَاتُ

63 وَلَوْ تَرَانِي إِذَا غَنَّتْ بَلاَبِلُهُ
أَشْكُو الْبَلاَبِلَ لَوْ تُغْنِي الشَّكِيَّاتُ

64 إِنِّي لَأَضْمَأُ وَالْأَنْهَارُ جَارِيَةٌ
حَوْلِي وَأَضْحِي وَدُونَ الشَّمْسِ دَوْحَاتُ

65 وَلاَ أَرَى الْمَوْتَ إِلاَّ بَاسِطاً يَدَهُ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُمْكِنَ الْمَأْسُورَ إِفْلاَتُ

بيت عدد 59 : البيت في خ أ حيث « واتبعت زفراتي به » وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 60 : البيت في خ أ حيث « ولا تنفس » وفي خ ب حيث « حسراتي المستكنات » وفي الذخيرة وأبو الحسن حيث « ولا تنفست انفا في الرياض ... حسراتي المستكنات »

بيت عدد 61 : البيت في الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 62 : البيت في خ أ حيث « ولا دعيت ... فجد لي » وفي خ ب حيث « وان كان » وفي الذخيرة وأبو الحسن حيث « وجدا وان كان » . وفي هذه المصادر كلّها « معناه » بالعين المهملة ولعلها « مغناه » بالغين المعجمة

بيت عدد 63 : البيت في خ أ وفي خ ب وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 64 : البيت في خ ب حيث « واصحا » وفي الذخيرة وأبو الحسن

بيت عدد 65 : البيت في خ أ وفي خ ب حيث « وما أرى » وفي الذخيرة وأبو الحسن حيث « وما أرى » ايضا

66 وَإِنَّنِي لَجَدِيرٌ أَنْ أَمُوتَ أَسًى
لَكِنَّ أَسْبَابَ مَحْيَايَ الرَّجِيَّاتُ

*
**

67 أَبْلِغْ أَحِبَّتَنَا الْبَاكِينَ مِنْ جِهَتِي
أَنِّي حَمَتْنِي أُسُودٌ حِمْيَرِيَّاتُ

68 مِنَ الضَّرَاغِمِ إِلَّا أَنَّ غَابَهُمُ
بِيضٌ حِدَادٌ وَحُمْرٌ سَمْهَرِيَّاتُ

69 فَمَنْ يَكُنْ فِيهِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مُخْتَلَفٌ
فَذَا الَّذِي اتَّفَقَتْ فِيهِ الْبَرِيَّاتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيت عدد 66 : البيت في خ ب

الابيات عدد 67 و 68 و 69 : في الذخيرة حيث زادها ابن بسام بعد قوله « ومنها في المدح » وأبو الحسن حيث جاءت بعد عبارة « ومنها »

ملاحظات في لغة القرآن
من خلال اسمى الاشارة والموصول

بقلم : محمد اليعلاوي

يَكَادُ الباحثون القدماء يجمعون على أنّ القرآن نزل بلغة قريش لأنّ « قريشاً أفصحُ العرب ألسنة وأصفاهم لغةً » (1) وإن كانوا يؤوّلون حديث الأحرف السبعة بأنّ الرسول (صلعم) سمح لصحابته بأن يُقرئوا الناس كلّ على لهجته تسهيلا على الداخلين في الإسلام (2) . ونقل السيوطي أنّ « القرآن أنزل أوّلا بلسان قريش ، ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثمّ أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب » (3) .

وقد أبدى علماء الغرب آراء أخرى في لغة القرآن . منهم المستشرق « فولاّرس Vollers » الذي قال في أواخر القرن الماضي : إنّ لغة القرآن ، لئن نزلت حقّا بلهجة قريش ، فإنّها ، فيما بعد ، عُدّلتْ وغُيّرتْ لتُصبح مجانسة للغة نجد ، وبخاصّة لغة شعراء نجد . وهذ

---

(1) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة – تحقيق مصطفى الشويمي – بيروت 1963 – ص 52 .
(2) عبد الوهاب حمودة : القراءات واللهجات – القاهرة 1948 – ص 9 .
(3) نقلا عن المصدر السابق ص 8 .

الرّأي (4) ، على ما فيه من تشابه مع القول الذي نقله السيوطيّ ، قد استنكره العرب ورفضه عامّة المستشرقين . وتواصلت المناقشات والنظريات إلى أن أبدى العلاّمة بلاشير (5) رأيا جديدا ، مفاده انّ القرآن نزل بلغة لم تكن لهجة نجد ولا لهجة الحجاز ، ولكن لغة « أدبيّة » مشتركة بين « الخاصّة » من كلّ قبيلة ، أي شعرائها وخطبائها ، وأطلق على هذه اللغة « الانتقائيّة الرسميّة » لفظة « الكويني Koıne » المخصوصة بلغة شعراء اليونان في عهد هوميروس ، لما بين الوَضْعيّتين من قرابة . وقد أبدى ابن فارس في فقه اللغة رأيا شبيها برأي بلاشير : « ... وكانت قريش – مع فصاحتها – إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فصاروا بذلك أفصح العرب » (6) إلاّ أنّه جعل هذه اللهجة « الانتقائيّة » في قريش نفسها ، تختصّ بمكّة ، وإن كانت مفهومة لدى كافة القبائل ، ولا يخفى انّ الذي حمله على هذا الرّأي هو الاعتقاد بأنّ لغة القرآن هي لغة قريش .

ونحن ، في بحثنا هذا في صيغ اسم الإشارة والاسم الموصول الواردة في القرآن ، وفي مختلف استعمالاتها ، نحاول أن نساهم ، من هذه الزاوية الضيّقة ، في هذه البحوث والمناقشات حول منشإ لغة التنزيل ، وذلك بالتساؤل عن مدى تأثّر لغة القرآن باللهجات القبليّة ، أو استقلالها عنها ، وانتسابها إلى هذه اللغة المنتقاة « المعروفة عن كافّة القبائل » كما يقول رابين Ch. Rabin (7)

(4) و(5) تجد إستعراضا لهذه الآراء في : دائرة المعارف الإسلامية في مقال : عربية ، وهو للباحث الانجليزي رابين Ch. Rabin وفي كتابه عن لهجات غربي الجزيرة في القديم : Ancient West-Arabain لندن 1951 ، وفي مقدمة ترجمة القرآن لبلاشير ، وفي الجزء الأول – الباب الثالث – من تاريخ الأدب العربي لبلاشير أيضا – باريس 1954 .

(6) الصاحبي ص 52 .

(7) رابين في المقال المذكور ص 584 .

1 — اسم الإشارة المجرّد

تألّفت أسماء الإشارة المختلفة حول نواة « مجرّدة » هي : «ذا» للمذكّر ، و« ذي » أو « تي » للمؤنّث . والبحث في « ذا/ذي » يجرّنا إلى « ذو » ، لأنّ « ذو/ذا/ذي » حالات ثلاث من كلمة واحدة . و« ذو » هذه لها استعمالات مختلفة :

1 — ذُو :

أ — اسم موصول خاصّ ببعض القبائل اليمنيّة ، وسيّما طيّـيء . وهو يلازم الواو حسب ابن عقيل (8) « وأشهر لغات طيّـيء فيها انّها تكون بلفظ واحد » ، مثلما في هذا البيت لحاتم الطائيّ : (طويل)

« إذا ما أتى يوم يفرّق بيننا
بموت ، فكن ، يا وَهْمُ ، ذو يتأخّر (9)
(الذي يتأخَّرُ)

على أنّ ابن عقيل (8) أورد شاهدا جرّت فيه « ذو » بالياء : (طويل)

« فأمّا كرام موسرون لقيتهم فحسبيَ من ذي عندهم ما كفانيا »
(من الذي عندهم)

ورأى قوم انّها تحوّل في المؤنّث إلى « ذات » ، فتبقى على إفرادها في نحو قولهم : « ... وبالكرامةِ ذاتُ أكرمكم الله بها » أو تجمع جمعا سالما ، في نحو هذا البيت الذي ساقهُ الأشمونيُّ (10) : (رجز)

جمعتها من أينق موارق ذوات ينهضن بغير سائق »

---

(8) — ابن عقيل — شرح الألفية ، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة 1954 — ج 1 ص 130 .

(9) ديوان حاتم الطائي ، بيروت 1968 ص 13 .

(10) شرح الأشموني على الألفية ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد . القاهرة 1955 ج 1 ص 72 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال آخرون انّ المؤنّث تصلح له « ذو » وحدها ، كما في الشاهد (11) : (وافر)

فإنّ الماء ماء أبي وجدّي وبئري ذو حفرت وذو طويت »

(التي حفرتها ..)

ومهما يكن من أمر « ذو » الطائيّة ، فلا وجود لها في القرآن ولا لمؤنثها .

ب – تكون « ذو » اسما من الأسماء الستّة التي تعرب بالحروف : ذو/ذا ذي ، ويُثنّى بـ « ذوا/ذوَيْ » ، ويُجمع بـ « ذوي/ذوو » أو « أولي/أولو » ، ويؤنّث بـ « ذات/ذوات » . وهو يفيد الملكيّة كما في قوله تعالى : « ذو العرش المجيد » (البروج 15) ، ومعاني أخرى ذكرها ابن فارس في فقه اللغة (12) . إلاّ أنّ القرآن ، بين الجمعين « أولو/ذوو » و« أولات/ذوات » ، يختار « أولو/أولات » ويهمل « ذوو/ذوات » ، كما يظهر من هذا الجدول الذي أثبتنا فيه الصيغ المستعملة مع عدد استعمالاتها :

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

اسم الاشارة المجرد : جدول رقم 1

		المفر	المثنى	الجمع 1	الجمع 2
المذكر	الرفع	ذو : 35	ذوا : 1	ذوو : 0	أولو : 17
	النصب	ذا : 16	ذوي : 1	ذوي : 1	أولي : 26
	الجرّ	ذي : 24			
المؤنث	الرفع	ذات : 30	ذواتا : 1	ذوات : 0	أولات : 1
	النصب		ذواتي : 1		أولات : 1
	الجرّ				

(11) ابن هشام : قطر الندى ، نشر عبد الحميد . القاهرة 1963 ص 102 .

(12) الصاحبي ص 154 .

ج — وتدخل « ذو » في تركيب بعض الأعلام ، وسيّما « أذواء » اليمن مثل « ذو يزن » و « ذي نواس » والأماكن : « ذو قار » الخ ...

2 — ذا :

نعود ، بعد هذا التمهيد ، إلى « ذا » ، اسم الإشارة الأصليّ ، لنلاحظ أنه لا وجود له قطّ في لغة التنزيل في معنى الإشارة ، أي معنى « هذا » ، في نحو هذا البيت : (طويل)

فلا خير فيما يكذب المرء نفسه وتقواله للشّيء : يا ليت ذا ليا (13)

ولكنّه ذكر بكثرة مقترنا بـ « مَن » و « ما » الاستفهاميّتين ، وهو ، في هذا التركيب ، لا يعدّ اسم إشارة ، بل اسماً موصُولاً . يقول ابن هشام (14) : وإنما تكون « ذا » موصولة بشرط أن يتقدّمها « من » و « ما » الاستفهاميّتان نحو : ماذا أنزل ربّكم ؟ (النحل 24) ، ونحو بيت الأعشى : (كامل)

وقصيدة تأتي الملوك غريبةٍ قد قلتها ليقال : من ذا قالها ؟

على أنّ « ذا » مسبوقة بـ « ما » تكتفي بنفسها كموصول في مثل التركيب المذكور ، في حين انّها إذا سبقت بـ « من » افتقرت إلى موصول آخر — الذي — في مثل قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده ... ؟ » (البقرة 255) ، فلا نجد قطّ : « من ذا يفعل » . فكأنّ « ذا » مع غير العاقل محتفظة بصفتها الموصوليّة أكثر منها مع العاقل ، أو لعلّ العاقل المتمثّل في « من » يحتاج إلى تأكيد صفته العاقلة بموصول مضاعف ؟

من ذا الذي ... ؟ : ذكر خمس مرّات	ماذا ... ؟ : ذكر 26 مرّة

(13) لأفنون التغلبي ، ذكر في المفضليات نشر حسن السندوبي . القاهرة 1926 ص 125 .
(14) شرح القطر المذكور ص 104 .

3 ــ أولاءِ :

لئن غاب « ذا » ، مفردا ومثنّى ، مذكّرا ومؤنّثا ، من لغة التنزيل ، فقد وُجد مجموعا ، في صيغة « أولاء » ، في آيتين : « ها أنتم أولاء على أثري » (طه 24) و « ها أنتم أولاءِ تحبّونهم » (آل عمران 119) . وكنّا ، بحكم « ها » المتقدّمة عليه ، نعتبره اسم إشارة للقريب ، لولا وجود « ها » مدغمة فيه في آيتين أخريين : « ها أنتم هؤلاء حاججتم (آل عمران 66) و« ها أنتم هؤلاء تدعون ... » (محمد 38) ، فوجب الفصل بين « أولاء » المجرّدة و « هؤلاء » التي للقريب .

« أولاء » هي إذن جمع « ذا » و « ذي » تقرأ بالقصر والمدّ « والمدّ أولى » (15) عند النحاة . لأنّ القرآن أقرّ المدّ وترك القصر ، وهي قراءة تميم ، فكأنّ المدّ ، عندهم ، خاصّ بالحجاز . ولكنّ رابين يعترض على هذا الرأي ، فالمدّ ، حسب قوله (16) منتشر عند القبائل القيسيّة التي تسكن وسط الجزيرة ، وبخاصّة عند قبيلة « غنيّ » ويقول : « ثمّ انّ النطق بالهمز خفّف في الحجاز إلى أن صار شبه معدوم (17) . ففي هذا التفضيل للصيغة المهموزة وجه من تغلّب لهجة نجديّة على لهجة قريش .

وفي « أولاء » نفسها ، يقول الزمخشري في تفسيره للآية : « ها أنتم أولاء على أثري » (طه 24) : « وقيل أولاء موصول صلته تحبّونهم » ، فإن صحّ هذا الرّأي ، ثبتت القرابة بين جمع « ذو ــ أولو » ، وجمع « ذا ــ أولاء » ، وبالتالي بين ذو الموصوليّة ، وذا الإشاريّة . ويسوق اللسان هذا الشطر : (طويل) « فإنّ الألاءِ يعلمونك منهمُ ... » (18) الذي وقعت فيه الألاءِ بمعنى الذين ،

---

(15) شرح ابن عقيل على ابن مالك ص 114 .
(16) مقال رابين المذكور بدائرة المعارف ص 582
(17) نفس المصدر .
(18) لسان العرب ج 15 ص 437 .

ويضيف : « هذا يدلّ على أنّ « ألاء » نقلت من اسم الإشارة إلى الاسم الموصول » . ويكفينا نحن أن ننبّه إلى القرابة بينهما .

وخلاصة هذا الباب أنّ :

1 — اسم الإشارة « المجرّد » لا يوجد منه في القرآن إلاّ جمعه المشترك بين المذكّر والمؤنّث ، على أنّ المثالين وردا للذكور العاقلين .

2 — هذا الجمع المشترك « أولاء بالمدّ/أولى بالقصر » . اعتبره بعض النحاة موصولا ، ممّا يدعّم القرابة بين « ذو » و « ذا » .

3 — « أولاء » الممدودة ، لئن صحّت نسبتها للحجازيّين ، فأصلها نجديّ ، وهذا دليل أوّل على تفضيل لغة التنزيل لقراءة قبليّة غير قراءة أهل مكّة والمدينة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2 — إسم الإشارة للقريب

بقسّم النحاة اسم الإشارة على ثلاث مراتب ، بحسب بعد المشار إليه : للقريب ، بإدخال حرف التنبيه « ها » على المجرّد : ها + ذا = هاذا = هذا ، والمتوسّط البعد بإسناد المجرّد إلى حرف الخطاب « ك » ، وهو عندهم غير الضمير : ذا + ك = ذاك ، وللبعيد إذا أدخل بين عنصري المتوسّط لام الإشارة : ذا + ل + ك = ذلك . على انّ هذه القسمة لم تحظ بإجماع النحاة إذ يقول صاحب الألفيّة (19) : « ولدى البعد انطقا ، بالكاف حرفا ، دون لام أو معه ... » ، فصارت لام الإشارة فاضلة عن الحاجة في تعيين البعيد ، وأصبح للإشارة مرتبتان لاغير : « هذا » وما تلاه للقريب ، « ذاك وذلك » وما تلاهما للبعيد ، ولا عجب أن يدقّق بعضهم القسمة ، فيبتكر هذا « المتوسّط » ، أليست القاعدة البلاغيّة تقول : كلّ زيادة في اللفظ لابدّ أن تتبعها زيادة في المعنى ؟

(19) ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل ج 1 ص 114

4 — ها :

عند النحاة هي حرف تنبيه ، ولكنّها تشارك في تأليف كثير من الأدوات الهامّة كضمائر الغائب ، وبعض أسماء الأفعال كـ « هلمّ » و « هات » و « هيهات » الخ ... ، وتكون هي وحدها اسم فعل بمعنى « خذ » كما ورد في الحديث (20) : « ... ولا الذهب بالذّهب إلاّ ها وها » . وكحرف تنبيه ، فقد رأيناها في الآيتين مع « أولاء » وفي مثل هذا البيت (21) : (كامل)

« ها إنّما مطرت سماؤكمُ دما ورفعتَ رأسك مثلَ رأس الأصْيَد »

وتكتسب « ها » أيضا وَظيفة إشاريّة ظاهرة : (طويل)

« فان يك من جنّ لأبرح طارقا
وإن يك انسا ماكها الانس تفعل » (22)

ومعنى الإشارة في هذا الشاهد أوضح : (كامل)

« ما تلك إلاّ جنّة الدنيا ، وها ولدانها جليت عليك وحورها » (23)

هذا ، وقد رأيناها في القرآن مقرونة بأولاء وهؤلاء ، فلم تأت كأداة إشارة محضة ، وإنّما استعملت لتقديم « أولاء » (طه 24 — آل عمران 199) فتولّد عنهما « هؤلاء » ، ثمّ رجعت إلى وظيفة التنبيه مع « هؤلاء » (آل عمران 66 — محمّد 38) . فكأنّنا ، في هذة الآيات الأربع ، نشاهد مشاهدة العيان ، نشوء صيغة هؤلاء ، فلا مجال للشكّ في أنّ الإشارة الأصلية هي « ذا » وما يليها .

(20) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح للطائي الدمشقي — نشر فؤاد عبدالباقي — ص 205

(21) ديوان حاتم الطائي ص 42 .

(22) لامية العرب في مجاني الأب شيخو ج 6 ص 204 .

(23) المقامة الانطاكية لابن الوردي مجاني 6 ص 107 .

5 — هذا :

إنّ استعمال « هذا » في التنزيل كثير ، في وجوه مختلفة ، منها أن يكون مع بدله : « فليعبدوا ربّ هذا البيت » (قريش 3) ، أو بمفرده كمبتدإ : « قالوا : هذا ما وعدنا الله » (الأحزاب 22) ، على أنّ الوجه الثاني أكثر شيوعا — 167 مرّة — من الأوّل — 33 مرّة — ، وقد يأتي بعد الاسم المعرّف في محلّ البدل أو التوكيد : « ... لقاء يومكم هذا » (الأنعام 130) ، ممّا جعل النحاة يتساءلون عن نعتيّته . وورد متبوعا باسم نكرة ، في آيتين : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة » (الجاثية 20) و « هذا بصائر من ربّكم وهدى ورحمة » (الأعراف 203) ، فتساوى مع « هذه » التي تتطلّبها الموافقة بين المبتدأ والخبر ، وقد أوّلها المفسّرون بـ « هذا القرآن » (24) . كما يرد في صدر الجملة كأداة استئناف للكلام : « هذا ، وإنّ للطاغين لشرّ مآب » (ص 55) . ونجده في آية مشهورة ، عاملا عمل النواصب : « ... وهذا بعلي شيخا » (هود 73) ، فقال قوم : إنّ شيخا منصوبة على الحال ، ولكنّ البيضاوي يقول : « والعامل فيها معنى اسم الإشارة » (25) ، ويدقّق ابن يعيش : « إنّ في أسماء الإشارة معنى الفعل، ولذلك كانت عاملة في الأحوال »، متمثّلا بـ « هذان الزيدان قائمين » (26) .

ولـ « هذا » صفة موصوليّة نادرة ، بل شاذّة ، ذكرها الزمخشري في المفصّل ، في هذا الشاهد : (27) (طويل)

« عدسْ ، ما لعبّاد عليك إمارة أمنت ، وهـذا تحملين طليق »

(والذي تحملين)

(24) البيضاوي أنوار التنزيل — المطبعة التجارية لكبرى ج 2 ص 256 وج 4 ص 140 .
(25) البيضاوي ج 3 ص 31 .
(26) ابن يعيش شرح المفصل ج 3 ص 126/127 .
(27) ابن يعيش ج 4 ص 23 .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي شأن العلاقة بين « ذا » و « هذا » ، يقول رابين (28) ، اعتمادا على هذين الاستفهامين الواردين في صحيح البخاري (29) ، متواليين من نفس الشخص ، موجّهين إلى شخص واحد : « من ذا ؟ ثمّ من هذا ؟ » واعتمادا أيضا على وفرة « ذا » بالنسبة إلى « هذا » في اللهجات ، يقول : ان بين ذا وهذا من الفرق ما بين « هدا » و« ذلك » في لغة اليوم . ويزيد أنّ « ذا » كانت معروفة في شرقيّ الجزيرة بمعنى « هذا » ، ثمّ انتقلت إلى الحجاز ، فنبذت عند قريش صيغة « ذو » الطائيّة (ولا ننس أنّ طيّئا كانت متاخمة لشرقيّ الحجاز) . فإن صحّت ملاحظة رابين ، من أنّ « ذا » هي التي كانت سائدة في الحجاز وقت النزول ، فيمكن أن نستنتج ، من خلوّ لغة التنزيل من « ذا » ، أنّ التنزيل فضّل عليها « هذا » ، وهنا أيضا ، يكون قد ترك صيغة حجازيّة .

وبخصوص دخول « ها » و « ك » جميعا على « ذا » ، فإنّ النحاة المتمسّكين بقاعدة المراتب الثلاث لا يجيزون هذا الجمع بين أداة التقريب وأداة التبعيد ، على أنّ الشعر القديم يقوم دليلا على إمكانه : (طويل)

« رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدّد» (30)

وحتى شعر النحاة : (رجز)

« ... أوْ لَوْ تحلّى بالشباب عمره لم يستلبْه الشيبُ هاتيك الحلى» (31)

فهل يعني هذا أنّ الكاف لا تفيد البعد ، وأنّها حرف خطاب لا غير ، بدليل تصرّفها مع المخاطب : ذلكم ، ذلكما الخ ... ؟ الرأي عندنا أنّها ، في الطور الأول ، لم تزد على أن كانت حرف خطاب ، ثمّ ، مع تقدم الدراسات

(28) رابين الكتاب المذكور ص 152 .
(29) صحيح البخاري باب ما يجوز من الشروط ج 3 ص 246 .
(30) معلقة طرفة بن العبد .
(31) من مقصورة ابن دريد — البيت 209 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البلاغيّة ، والتعمّق في حقيقة الحكم « البلاغة هي الإيجاز » ، قرّروا أنّ زيادة هذا الحرف ، لابدّ أن تتولّد عنها زيادة في المعنى ، فقالوا بالمتوسّط وقالوا بالبعيد حين زيدت اللام .

على أنّ لغة التنزيل لم يرد فيها هذا النوع من الإشارة المزدوجة ، وهي كثيرة في اللهجات العامّيّة اليوم : « هاذاك — هاذيك — هاذوك — هذُولِكْ الخ ... » (32) .

6 — هذه :

مؤنّث « ذا » هو « ذي » و « تي » ، وزاد عليهما النحاة وجوها أخرى متولّدة عنهما ، إمّا بإبدال الياء بهاء السكت : « دهْ/تهْ » ، وإمّا بوصل هاء السكت بكسرة في النطق : « ذهِ/تهِ » (ذه المرأة ته البنت) أو بإشباع الكسرة : « ذهي/تهي » (33) . وأضافوا إليها « ذات » ، وهي أغربها لأنّ المشهور استعمالها بمعنى صاحبة » (34) ، و « تا » المشابهة لـ « ذا » . والقرآن لم يأت بشيء منها . أمّا الشعر ففيه « تا » : (رجز)

« قال لها : هل لك يا تا فيّ ؟ قالت له : ما أنت بالمرضيّ (35)

(بسيط)

« ها انّ تا عذرة ، ان لم تكن نفعت فإنّ صاحبها قد تاه في البلد (36)

وفيه أيضا « هاتا » (ها + تا) : (وافر)

« وليس لعيشنا هذا مهاة وليست دارنا هاتا بدار » (37)

---

(32) أنظر ما جمعه كانتينو منها في لهجات الشام J. Cantineau : Les parlers du Horan

(33) الأب فلاش = L'arabe classique بيروت 1956 ص 142 تنبيه 26 .

(34) شرح القطر ص 99 .

(35) ذكره الزمخشري .

(36) من معلقة النابغة الذبياني .

(37) البيت لعمران بن حطان ، ذكره ابن يعيش ج 3 ص 134 .

كما نجد فيه « هاتي » (ها + تي) : (طويل)

« ونبّأتماني انّما الموت بالقرى فكيف ، وهاتي هضبة وكثيب » (38)

وساق اللسان هذا الشاهد : (39) (رجز)

« جئنا نحيّيك ونستجديك فافعل بنا هاتاك أو هاتيك »

وفي تهذيب الصحاح هذا البيت لعبيد بن الأبرص : (كامل)

« هاتيك تحملني وأبيض صارما ومذرّبا في مارن مخموس » (40)

وهذه الشواهد الأخيرة بـ« هاتي » و« هاتيك » تلفت انتباهنا بصفة خاصّة ، لأنّها تبرّز وجود صيغة « هاته » في المؤنّث ، وجودها النظريّ على الأقلّ ، وهي صيغة طالما استهجنها الفصحاء وعدّوها من الخطإ الشائع . والواقع أنّه لا وجه لدفعها ، ومنشؤها كمنشإ « هاذي – هذي » بالسواء ، إلاّ إذا استندنا إلى القرآن لأنّه لم يذكر إلاّ « هذه » ، فنحكم أن لا فصيح إلاّ « هذه » . وإذا كان الرأي هذا ، فلمَ نقبل « ذا » رغم إهمال القرآن لها ؟

وفي الآية : « لا تقربا هذه الشجرة » (البقرة 35) ، قرأ بعض القرّاء « ولا تقربا هذي الشجرة » ، فقال الزمخشري في الكشّاف : « والأصل الياء ، والهاء بدل منها » ، وفي هذه/هذي ، يقول رابين (41) : إنّ « هذه » ورثها غربيّ الجزيرة عن شرقيّها ، فبذّت صيغة « تا » المعروفة في الغرب (عند ذبيان مثلا المتاخمة للحجاز) بعد أن تحوّلت عن « هذي » المتحوّلة هي نفسها عن « ذو » الطائيّة . وبصفة عامّة ، فإنّ « ذو » و« ذي » كانتا في أقدم اللهجات تقتسمان الجزيرة كلّها ، فالغرب كان ينطق بـ« ذو » ثمّ حوّلها إلى

(38) المرجع السابق ، والبيت لكعب الغنوي .
(39) لسان العرب ج 15 ص 446 .
(40) تهذيب الصحاح ج 3 ـ ص 1102 .
(41) ش. رابين : ص 156/155 .

« ذي » ، وامتدّت « ذو » في الغرب حتى إلى منطقة اللغة العبريّة ، حيث نجدها في الشعر بصورة « زو Zu » (42). أمّا الشرق والشمال ، فكانت تسود فيهما « ذي » ، حتّى منطقة الارامية . وتتّضح مناطق هاتين الصيغتين بالرجوع إلى الخريطة اللغويّة الّتي ننقلها عن كتاب رابين (43) .

قلنا إنّ القرآن لم يورد إلاّ « هذه » ، تاركاً « تا » الحجازيّة والغربيّة عامّة ، والقرشيّة « تي » وقد وردت في سؤال الرّسول (ص) لعائشة : « كيف تِيكُمْ ؟ » (44) ، فهنا أيضا يمكن القول ان القرآن فضّل صيغة من لهجات اليمامة في شرقيّ الجزيرة ، على صيغ في معناها ، مستعملة عند قريش .

7 — هذان :

ورد من هذا المثنّى في القرآن مثالان . ونسمّيه مثنّى بالرّغم من القضيّة التي أثارها ابن جنّي في رسالة « علل التثنية » فقد قال (44 مكرّر) : « أعلمْ أنّ هذان وهاتان واللذان واللتان إنّما هي أسماء موضوعة للتثنية مختَرَعة لها ، وليست بتثنية الواحد على حدّ زيد وزيدان » . وإنّما سمّيناه مثنّى جرياً على العادة وأخذاً بما اصطلح عليه الجمهور .

فأمّا الأوّل من المثالين : « قالوا ان هذان لساحران يريدان ... (طه 63) فقد أحصى المفسّرون في شأنه ستّ قراءات ، بحسب صيغة الحرف العامل ، إن كان « إنّ » المكسورة المشدّدة الناصبة ، أم « إنْ » المكسورة الخفيفة غير العاملة :

1 — إنّ هذين ساحران : وهي قراءة منسوبة إلى أبي عمرو بن العلاء قارىء البصرة (بإنّ الناصبة للمبتدأ) .

(42) دائرت المعارف — المقال المذكور .
(43) كتاب رابين ص 20 — أنظر الخريطة .
(44) صحيح البخاري ج 3 ص 228 — باب الشهادات 14 .
(44) مكرر : أنظر فصل عبد القادر المهيري في حوليات الجامعة سنة 1965 ص 51 .

الصيغ العتيقة من اسم الموصول

(منقولة عن تش رابين C. Rabin: Ancient West-Arabian

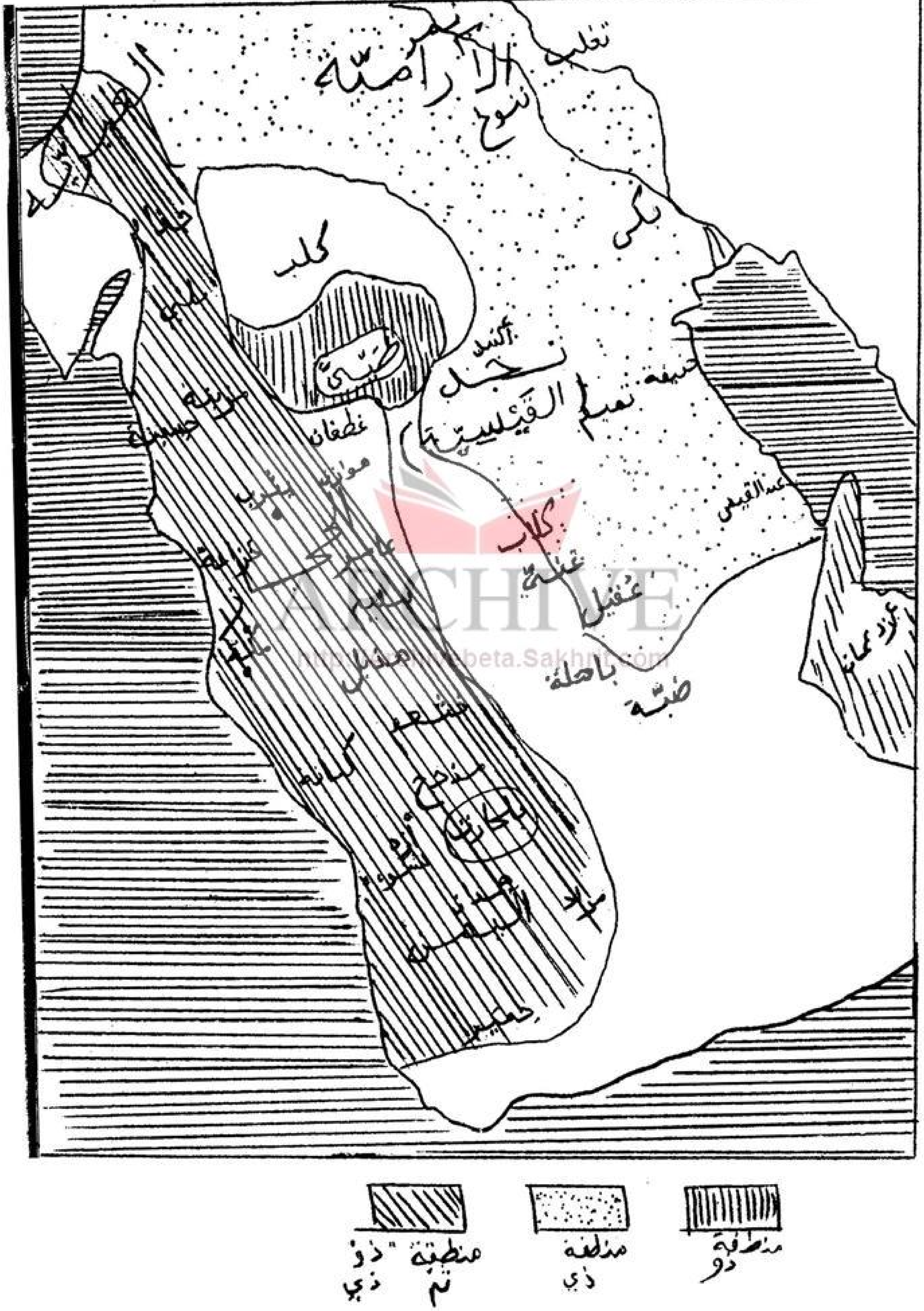

2 و3 — إنْ هذان ساحران — إن هذان لساحران ، (بالخفيفة) . قيل إنّهما قراءتا عاصم بن أبي النجود الكوفيّ ، وابن كثير المكّي .

4 — إن ذان إلاّ ساحران : قراءة باسم الإشارة المجرّد ، وبأداة الاستثناء وتنسب إلى أبيّ بن كعب

5 — أن هذان لساحران : قراءة بأن المفتوحة الخفيفة ، تنسب إلى عبد الله بن مسعود .

6 — انّ هذان لساحران : قراءة بانّ المشدّدة المكسورة ، ولكنّها غير عاملة في المثنّى . وهي قراءة « مشهورة » حسب النحاة ، لأنّها قراءة بني الحارث بن كعب (شمال اليمن) الذين كانوا يعاملون المثنّى معاملة واحدة في الحالات الثلاث ، فلا يقلبون ألفه ياء ، ويسوقُ النحاة شاهدا عليها من شعرهم : (رجز)

« أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانا »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهو شاهدٌ غريب من جهة أنّ هذه اللهجة المشهورة قد وقعت في « عينانا »ولم تقع في « منخرين » إلاّ أنّ الشاهد التالي قد عمّمت فيه هذه اللهجة : (رجز)

« إنّ أباها وأبا أباهـا قد بلغا في المجد غايتاها » (45)

ومن بين هذه القراءات المختلفة ، يظهر أنّ مصحف القاهرة الذي طبع سنة 1342/1923 بإشراف الملك فؤاد ، قد اختار قراءة الكوفيّين : إنْ هذان لساحران .

وعند البيضاوي (46) والنسفي (47) كليهما ، نجد تأويلا للحرف العامل « إنّ » . قالا نقلا عن الزّجاج : إنّ معناها « نعم » بدليل قول الشاعر : (كامل)

---

(45) مغني اللبيب ج 1 ص 38/37 .
(46) تفسير « أنوار التنزيل » ج 3 ص 178 .
(47) تفسير النسفي — طبعة محمد علي صبيح ج 3 ص 59 .

« ويقلن شَيْبٌ قد علا ك ، وقد كبُرت ، فقلت : إنَّهْ »

أي « نعم ، قد كبرت » ، والهاء فيها للوقف . فعلى هذا التقدير صارت الآية : « نعم ، هذان ساحران » ، ولم يعد وجه للتساؤل عن تطبيق القاعدة النحوِيّة . ولكنّ صاحب المغني دفع هذا الرأي منكرا مجيء « إنّ » بمعنى « نعم » (45) .

وقد عقد فصلا في عمل « إنّ المكسورة المشدّدة » فساق شاهدين على انتصاب ما بعدها ، مبتدأ وخبرا . فالأوّل من شعر عمر : (طويل)

« إذا اسودّ جنح الليل ، فلتأتِ ولتكن
خُطاك خفافا ، انّ حرّاسنا أسْدًا (48)

والثاني من الحديث النبويّ : « إنّ قعرَ جهنّم سبعين خريفا » . وعلى هذين الشاهدين بنى رابين رأيه في انّ أهل مكة كانوا ينصبون المبتدأ والخبر جميعا (49) .

وهناك تأويل ثامن في هذه الآية : « إن هذان لساحران » ، نقله الكازروني عن ابن الحاجب ، وهو انّ « هذان » مبنيّ فيجيء في المواضع الثلاثة على حال واحدة .

وخلاصة القول ، فيها ، انّ لهجة الحجاز ، ان صحّ انها كانت تنصب عنصري الجملة الاسميّة « بإنّ » ، فقد غلبتها لهجة بلحارث بن كعب التي ترفعهما ، غلبتها في قراءة من قرأ : إنّ هذان ساحران .

أمّا المثال الثاني من « هذان » ، فقد ورد في « هذان خصمان اختصموا » (الحجّ 19) ، ووجه الاهتمام به انّ الفعل لم يثنّ تبعا للمسند إليه . غير ان

(48) لم نجد هذا البيت في طبعة عبد الحميد لديوان عمر ، ولكنه منسوب إليه في شرح شواهد المغني للسيوطي ج 1 ص 122 .

(49) ص 156 .

المفسّرين قالوا انّ المقصود هو الجمع ، فـ « خصمان » تمثل ، كما يقول البيضاوي « فوجين مختصمين حَمْلاً على المعنى » .

على أنّ هذا التعليل لا يمنعنا من ملاحظة ضعف المثنّى في العربيّة القديمة ، فالدلائل على معاملته معاملة الجمع كثيرة ، سواء أكان ذلك صادرا عن تساهل أمْ سهو . وهذا التضاؤل من المثنّى يشاهد اليوم بوضوح في اللهجات العاميّة .

8 — هاتان :

نجد « هاتان » مجرورا بالياء في مثال واحد : « إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين » (القصص 27) ولم يزد الزمخشري عليه شيئا سوى أنّ النبيّ شعيبا كان له أكثر من بنتين ، بدليل التوكيد بـ « هاتين » ، فالإشارة حصرت الاختيار في البنتين اللتين حضرتا مقابلة موسى مع أبيهما .

وفي شأن هذا المثنى المؤنّث ، يتّفق النحاة على أنّه « لم يثنّ من لغات المؤنّث — العشر — إلاّ « تا » وحدها (50) ، فإذا ثنّيت لم تقل إلاّ « تان » و« تين » . وبناء على هذا ، نقول انّه لم يسمع عن العرب أنّهم ثنّوا « هذي » مثلا ، فقالو « هذان/هذين » وهم يقصدون المؤنّث ، ولو فعلوا لالتبس المذكّر بالمؤنّث . وقد كثر عندنا في هذه الأيّام تعيين المؤنّثين بـ « هذين » ، وسيّما عند أهل الإذاعة وما شاكلها ، فأحببنا أن نلحّ فيه لنبدّد خطأً شائعا ، لا مبرّر له ولا مسوّغ .

9 — هؤلاء :

هو الجمع المشترك بين « هذا» و« هذه » ، ولكنه في القرآن للمذكّر أكثر منه للمؤنّث ، إذ لا يعدو هاتين الآيتين : « هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم (هود 78) — « هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين » (الحجر 71) .

---

(50) المفصل ج 3 ص 126 — اللسان 15 ص 445 .

وفيما يخصّ القسمة بين الإشارتين القريبة والبعيدة ، نلاحظ من هذين المثالين : « ... مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » (النساء 143) — « كلاّ نمدّ ، هؤلاء وهؤلاء ، من عطاء ربّك » (الأسراء 20) نلاحظ انّ المرتبتين كانتا تختلطان وتمتزجان ، فاليوم نقول : « لا هؤلاء ولا أولائك » ، عملا بتلك القسمة ، كما نقول : « لا هذا ولا ذاك » . وقد مرّ بنا الشاهد من اللسان : « ... فافعل بنا هاتاك أو هاتيك » ، فهو أيضا يعبّر عن المرتبتين بنفس الصيغة تقريبا . في هذه الأمثلة الثلاثة دليل على تضييق النحاة لما وسّع فيه التنزيل ، نعني إمكانيّة التعبير بالكاف والهاء جميعا للقريب والبعيد جميعا .

الاشارة الى القريب : جدول رقم 2

		المفرد	المثنّى	الجمع
المذكّر	الرفع	هذا : 220	هذان : 2	هؤلاء : 45
	النصب الجرّ		هذين : 1	
المؤنّث	الرفع	هذه : 47	هاتان : 0	
	النصب الجرّ		هاتين : 1	

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

3 — اسم الإشارة للمتوسّط

وهو المتركّب من المجرّد « ذا/تا/تي » ، مسندا إلى حرف الخطاب « ك » ، فيكون من فصيلة « ذاك » و« تاك » الخ ... ولا يجوز ضمّ « ذي » إلى الكاف . جاء في اللسان : « ... والعامّة تخطىء ، فتقول : كيف ذيك المرأة » ؟ (51) .

(51) لسان — 15 ص 449 .

وهذا النوع لا يقتصر على هاتين الصيغتين ، بل يتصرّف في اتّجاهين : « عموديّ » ، بحسب المشار إليه في حالات جنسه وعدده . و« أفقي » بحسب المخاطب في حالات الجنس والعدد كذلك . وكأنّ صاحب اللسان توقّع ما في هذا التصريف المزدوج من عسر ، فقال مسهّلا : « فالكاف لمن تخاطبه في التثنية والإفراد والجمع ، والتذكير والتأنيث . وما قبل الكاف لمن تشير إليه في تلك الحالات . فإن حفظت هذا الأصل ، لم تخطىء في شيء منه » (52) أي ، في وجوه الستة والثلاثين كما ضبطها جدول الأشموني (53) ، وهي في الحقيقة ثمان وأربعون إذا أضفنا إليها وجوه المثنّى المجرور والمنصوب بالياء . وهذا الإحصاء لا يصحّ إلاّ إذا اعتبرنا « أولائك » جمعا لهذا الصنف من الإشارة ، كما فعل الشرتوني (54) . والواقع أنّ كثيرا من النحاة يعتبرون « أولائك » جمعا مشتركا بين الإشارة المتوسّطة والإشارة البعيدة ، وهو اعتبار لا مبرّر له : فلو صحّ أنّ ذاك وذلك تشتركان في « أولائك » ، لقلنا : أين ذهبت لاَمُ « ذلك » ، تلك التي تظهر في أولالِك « تقصير أولاءِ لِكَ » كما يقول ابن هشام (55) مستشهدا بهذا البيت : (طويل)

« ألالِكَ قومـي لم يكونوا أشابة   وهل يعظ الضّلّيل الاّ ألاّلِكَا » ؟

فالرأي عندنا انّ « أولائك » اسم إشارة من فصيلة المتوسّط لا البعيد .

ولنبحث الآن في الكاف « حرف الخطاب » : فقد سمّيت « حرف خطاب » لكي لا تعتبر ضميرا ، والضمير اسم ، فإذا ضمّ « ذان » إلى الضمير ، وجب حذف النون للإضافة : ذان+ك = ذاك ، وبالتالي ، يلتبس المفرد مع المثنّى . وسمّيت بهذا الاسم أيضا لأنّها تتصرّف مع المخاطب ، وإن كنّا لا نرى

(52) نفس المرجع ص 446 .
(53) شرح الأشموني ج 1 ص 64 .
(54) مبادىء العربية ج 4 ص 134 .
(55) ابن هشام – شرح القطر ص 99 .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

ضرورة في تصوّر مخاطب كلّما قلنا فيما بيننا وبين أنفسنا : « ينبغي أن أقرأ ذاك الكتاب ، ثمّ أكتب تلك الرسالة » ، الا إذا كان حديث النفس مخاطبة كذلك . فإذا كان كلّ كلام خطابا ، موجّها إلى مخاطب موهوم يتمثّل في هذه الكاف ، فلمّ لا نضمّها دوما إلى كلّ إشارة ، حتّى إلى القريبة ، فنقول : « هذاك الكتاب » وهذانك القلمان ، وهؤلائك التلاميذ ، وهي تراكيب ، لئن كثرت في العاميّة اليوم ، لا تظهر في الفصيح إلاّ لماما ؟ ألأنّ المخاطبة توجب شيئا من البعد لا يتّفق مع التقريب المستنتج من هاء التنبيه ؟

هذا المخاطب إذن ، إن لم يكن موهوما دائما ، فهو على أقلّ تقدير غير ضروريّ ، نعني ، انّ هذا الحرف لا يتصرّف بالضرورة إذا كان السامعون أكثر من واحد ، أو كانت سامعة أو سامعتان الخ ... فهذا شيخ البخلاء يخاطب أصحابه في مسجد البصرة فيقول : ... فعمدت إلى ذلك المتوضّإ ... » (56) ، فلا يقول : ذلكم المتوضّأ . وهذه صاحبة عمر : (كامل)

« قالت لتربيها : بعمركما هل تطمعان بأن نرى عمرا ؟
« إنّي كأنّ النفس موجسة ولذاك أطمع انّه حضرا » (57)

فلم تقل لَهُمَا : « ولذاكما ... » .

والواقع أنّ النحاة لم يوجبوا قطّ هذا التصريف مع أحوال المخاطب ، وإنّما أجازوه وأقرّوه ، وما فعلوا الاّ لأنّ له مستندا في القرآن والشعر القديم . ثمّ انهم يعلّلون هذا التصريف بتعليل آخر ، وهو « تعظيم المشار إليه وتوكيد أهميّته » . في هذا البيت « : بكت عيني ... (وافر)

على أسد الإلاه غداة قالوا أحمزةُ ذاكُمُ الرجل القتيل ؟

قد نعلّل تصريف الكاف إلى « كم » بتعدّد السامعين للمرثية أوّلا ، أو تعدّد المتفجّعين يوم أحُد ، ثمّ بتعظيم حسّان بن ثابت لحمزة سيّد الشهداء ثانيا .

---

(56) قصة صاحب الحمار من المسجديين – بخلاء ص 29 نشر طه الحاجري – القاهرة 1963 .
(57) ديوان عمر ص 155 – القصيدة 38 .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمّا تصريفه مع المخاطبة ، أي انتقاله من الكاف المفتوحة إلى الكاف المكسورة ، فإنّه يعسر البتّ فيه ، إذ لا يعدو الأمر أن يكون اختلافا في حركة الكاف ، كما قالوا في هذا البيت لمتمّم بن نويرة (58) : (كامل)

« ذاك الضياع ، فان حززت بمدية كفّي ، فقولي : محسن ما يصنع »

فإنّه روي بكسر الكاف ورواه ابن الأنباري بفتحها . هذا ، في التصريف « الأفقي » . أمّا التصريف « العموديّ » ، أي بحسب المشار إليه ، فلا يخلو أيضا من التباس ، إذ قد يشار بأولائك إلى ما حقّه الإفرادُ ، وبذاك أو ذلك إلى ما حقّه الجمع ، كما سنرى بالتفصيل في بحث « أولائك » .

هناك ملاحظة أخرى في « ذاك » : وهي علاقتها مع « ذلك » المتعيّن للبَعيد . فقد قال الأشموني (59) « ذاك لغة تميم ، وذلك لغة الحجاز » ، وما حمله على هذا التقسيم إلاّ خلوّ لغة التنزيل من « ذاك » ، ووفرة « ذلك » فيها . والواقع أنّ شعراء الحجاز يستعملون « ذاك » بقدر ما يستعملون « ذلك » بل ربّما تغلّبت « ذاك » على « ذلك » عند شاعر قرشيّ كعمر بن أبي ربيعة ، بنسبة الضعفين ، فقد أحصينا 17 ذاك في مقابل 8 ذلك في استقراء أجريناه على نصف ديوانه تقريبا . فلا وجه حينئذ إلى اعتبار « ذلك » خاصّة بالحجاز ، وأنّها لغة تغلّبت على « ذاك » التميميّة .

10 — ذاك/تيك/ذانك :

لا وجود للمفرد منه في القرآن ، وإنّما ذكر مثال من المثنّى : « أسلك يدك في جيبك ... فذانك برهانان من ربّك » (القصص 32) ، على أنّ فيه قراءة بتشديد النون لأنّها في تأويلهم لام الإشارة من « ذلك » ، قلبت نونا ثمّ أدغمت في أختها نون المثنّى . فإن صحّت هذه القراءة ، لم يبق في لغة

---

(58) المفضليات ص 13 .

(59) شرح الألفية ص 65 .

القرآن من هذه الإشارة المتوسّطة إلاّ الجمع « أولائك » ، وقد قلنا ان « أولائك » جمع ذاك لا جمع ذلك ، وإن كنّا لا نرى فرقا كبيرا بين ذاك وذلك .

11 — أولائك :

هذا الجمع المشترك ، بل « المطلق » : « ... وبأولى أشر لجمع مطلقا ... » (60) ، أي الصالح للمذكّر والمؤنّث ، وللعاقل وغيره ، قد ورد بكثرة — 204 مرّة — في لغة التنزيل ، على أنّه مسند في الأغلب إلى العاقل ، وفي الأكثر للمذكّر ، إذ كثيرا ما يعزّز بالموصول « الذين » : « أولائك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » (البقرة 16) . ولكنّه أتى مرّة مشتركا فعْلاً بين ذكر وأنثى : « ومن يعمل صالحا من ذكر وأنثى فأولائك يدخلون الجنّة » (غافر 40) ، ومرّة متعلقا بغير العاقل : « انّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولائك كان عنه مسؤولا » (الاسرء 36) . فإنّ « أولائك » هنا جاءت في موضع « تلك » إذا مـّا اعتبرنا مجموع المسمّيات غير العاقلة فعاملناها معاملة المؤنّثة المفردة . وقد قال البيضاوي (61) : « إنّ تثنية المضمرات والمبهمات وجمعَها وتأنيثَها ليست على الحقيقة » ، فهذا الجمع غير حقيقيّ ، وإنما هو بمثابة المفرد « تلك » . وقد تكون جاءت في موضع « ذاك » ، باعتبار آخر مسمّى ، وهو الفؤاد (قاعدة الإتباع) . على أنّ الشعر القديم يقرّ استعمال أولائك لغير العاقل : (كامل)

« ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولائك الأيّام (62)

وفي هذا الصدد ، لا يفوتنا أن نذكّر بالعادة القديمة — والحديثة — في « تعقيل » غير العاقل وسيّما الحيّ المتحرّك ، بنون النسوا ن، من نملات

(60) بيت الألفية رقم 84 .
(61) أنوار التنزيل ... ج 1 ص 158 .
(62) البيت لجرير ، وهو في اللسان ج 15 ص 437 وفي شرح ابن عقيل ج 1 ص 115 .

الجاحظ ، إلى حمامات العراق إلى البقرات السمان ... « يأكلهنّ سبع عجاف » (يوسف 43) .

ونجد مثالا يختلف فيه « أولائك » عن مذكوره الذي يعود عليه : « والذي جاء بالصدق وصدّق به ، أولائك هم المفلحون » (الزمر 33) ، « فأولائك » الجمع يعود على « الذي » المفرد . وقد يكون « الذي » المستعمل في معنى الجمع « تخفيفا للذين » (63) ، وسنرى ذلك تفصيلا في باب الموصولات ، عندما نبحث في الآية : « وخضتم كالذي خاضوا » (التوبة 69) . ومهما يكن مِنْ أمر ، فلنقل : انّ في ظاهر الآية إشارة بالجمع إلى المفرد ، وعلى العكس فقد نجد إشارة بالمفرد إلى الجمع ، كما سيتبيّن لنا من بحث « ذلك » .

ولا يفوتنا ، قبل الفراغ من « أولائك » ، أن نذكر هذا البيت الذي وردت فيه صيغة « هؤلائك » جامعة بين هاء التقريب وكاف التبعيد ، على غرار « هذاك الطراف الممدّد » : (خفيف)

« هؤلا ثمّ هؤلائك أعطيـــــتُ نعالا محذوّة بنعال (64)

ولاشكّ في أن « هؤلا » الأولى ، التي حذفت همزة مدّها ، تشير إلى قوم « أقرب » من الذين تشير إليهم « هؤلائك » . فلنقل إذن : إنّ كاف الخطاب ، لئن لم تتناف مع هاء التقريب ، ولئن لم توجّه الكلام ضرورة إلى مخاطب ، فهي بدون شكّ ، تعيّن المشار إليه لشيء من البعد ، وذلك ما قرّره النحاة حين خصّصوا بابا للإشارة إلى المتوسّط .

هذا ، وقد وردت « أولائكم » متصرّفة « أفقيّا » مع جمع المخاطبين ، مرّتين : « وأولائكم جعلنا لهم سُلطانا مبينا » (النساء 91). « أكفّاركم خير من أولائكم » (القمر 43) .

---

(63) حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي ج 1 ص 158 .

(64) البيت للأعشى ، ذكره ابن يعيش ج 3 ص 134 .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاشارة الى المتوسط : جدول رقم 3

	المفرد	المثنّى	الجمع
المذكّر	ذاك : 0	ذانك : 1 ذينك : 0	أولائك : 202
المؤنّث	تاك/تيك : 0	تانك/تينك : 0	أولائكم : 2

5 — اسم الإشارة للبعيد

هو مثل صيغة المتوسّط ، إلاّ أنه أقحم فيه « لام الإشارة » ، فصارت صيغة « ذلك » ، و« تلك » المحوّلة عن تِيلِكَ ، و« ذانّك/تانّك بالتشديد » ، « وأولالك » التي رأيناها . ويجمع النحاة على منع اللام مع الهاء ، يقول ابن مالك : « ... واللام إذا قدّمت ها ممتنعة » (65) ، كأنّ هذه اللام تعيّن الإشارة إلى البعيد أكثر من الكاف حرف الخطاب . وهذا المنع لم يصل إلى العامّيّة التي نجد فيها صيغا من جنس « هذولك » ، تجمع بين الهاء واللام والكاف ، وحتّى الفصحى ، نجد فيها مثل هذا الجمع في أسماء الإشارة المكانيّة مثل : « هنالك » . ولكن ، والحقّ يقال ، لم نجد في الشعر القديم ، صيغة واحدة تجمع الحروف الثلاثة في معنى الإشارة المحضة .

وفي لغة التنزيل ، يتمثّل هذا الصنف في « ذلك » ومؤنّثه « تلك » مجرّدين أو متصرّفين بتصرّف حرف الخطاب : ذلكما — ذلكنّ — تلكما — ذلكم — تلكم . أمّا « أولائك » ، فقد حصرناه في « المتوسّط » كما مرّ .

(65) الألفية — البيت 85 .

12 — ذلك :

هذه الصيغة كثيرة في لغة التنزيل — أكثر من ثلاثمائة مرّة — ، وترد عادة خالية من البدل ، إلاّ في مثالين : « الم ، ذلك الكتاب ... » (البقرة 2/1) — « ذلك الفضل من ربكم » (النساء 69) .

وترد في صدر الجملة كمبتدإ لا يفصله ضمير عن الخبر ، في مثل هذه الآية : « ذلك الدين القيّم » (التوبة 36) . ولاشكّ أنّ البدء باسم الإشارة يدعّم الفكرة المعروضة ويؤكّد الاحتجاج .

ويرد هذا الاسم أيضا في صدر الجملة للاستدلال وتوكيد السبب : « ذلك بأنّهم كذّبوا بآياتنا » (الأعراف 146) . هذا الغرض الاحتجاجيّ واضح في سورة الشعراء حيث تتكرّر هذه الآية : « إنّ في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين » ، تكرّرت ثماني مرّات .

ويرد أخيرا في صدر الجملة أيضا كأداة لاستئناف الكلام ، كما رأينا في « هذا » : « ذلك ، ومن عاقب بمثل ما عُوقب ... » (الحج 59) .

ذلك وضمير الفصل :

لا يجري الفصل بين ذلك كمبتدإ وخبره على وتيرة واحدة : فتارة يفصل بينهما الضمير « هو » وتارة يعتمد على المعنى وحده لإجراء هذا الفصل . في مثل هذه الآية : «ذلك الفوز العظيم » (النساء 13) التي تكرّرت خمس عشرة مرّة ، نجد ضمير الفصل مذكورا في سبع آيات . ولانجده في ثمان ، دون أن يكون لإثباته أو لتركه مرجّح ، إذ يكفي السياق لمعرفة المعنى ، ولا سيما أنّ الكلمة الأخيرة ، نظرا لما فيها من نغم طويل ، لا تُبقي شكّا في انتهاء الآية . فلا خوف أن يلتبس الخبر ببدل الإشارة ، فيقرأ قارىء « ذلك الفوز العظيم ... » وينتظر بقيّة ، أي خبرا للفوز المنعوت بـ « العظيم » .

وفي آية « ولباس التقوى ذلك خير لكم » (الأعراف 26) تقوم « ذلك » مقام ضمير الفصل لأنّها أقحمت بين المبتدأ « لباس التقوى » ، والخبر « خير لكم » . واقحامها هنا حمل المفسّرين على التأويل ، فقال الزمخشري إنها وضعت لتعظيم لباس التقوى لأنّها عملت عمل ضمير الفصل . ومثل هذا الافتراض يلفت الانتباه ، لأنّه يبرّر وجود ضمير الفصل في الآيات التي تكون على غرار : « والله هو العليّ العظيم » (البقرة 255) ، فكأنّ زيادة الضمير زيادة فصل ، أي زيادة توقّف بين المبتدإ والخبر ، وبالتالي ، زيادة في التنبيه وجلب الاهتمام . أو ، عملا بالمعادلة البلاغية : « زيادة في اللفظ = زيادة في المعنى » ، لعلّ إقحام ضمير الفصل مقصود لرفع التباسٍ ونفي صفة الخبر عن موصوف آخر ممكن في التخيّل والوهم : « فالله هو العليّ العظيم » تعني : الله وحده عليّ عظيم ، لا غيره . على أنه ، سواء قبلنا التأويلين أم رفضناهما ، فالتساؤل باق : لماذا يؤكّد هنا ، ولا يؤكّد هناك ؟ لماذا احتيج إلى رفع الالتباس هناك ، ولم يحتج إليه هنا ؟

ويزيد الكازروني (66) في الطين بلّة ، فيلاحظ أنّ « ذلك » مُغْرِقٌ في المعرفة بالنسبة إلى لباس التقوى الذي عرّف بالإضافة فقط ، والإضافة دون التعريف ، وإنما هي تخصيص ، « فلا يصحّ أن نجعل الـ « أعرف » صفة لما دونه في التعريف » . ولذلك احتاج البيضاوي إلى تأويل « ذلك » بعبارة « المشار إليه » ، أي : « ولباس التقوى ، هذا الذي أشير إليه ، خير الخ... » ولنلاحظ أخيرا أنّ أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ، كانا يحذفان « ذلك » من قراءتهما للآية .

الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعدا :

في هذه الآية : « ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيّين »

---

(66) حاشية الكازروني على البيضاوي ج 2 ص 233 .

(البقرة 61) ، يرى البيضاوي وجها من الإشارة بالاسم المفرد « ذلك » إلى الشيئين (معنى الجملتين) ، ويستدلّ على امكانه ببيت رؤبة : (رجز)

« فيها خطوط من سواد وبلق كأنّه في الجلد توليع البهق

الذي جاء فيه ضمير « كأنّه » عائدا على أمرين ، وهما السواد والبلق ، أو عائدا على أكثر من اثنين ، وهي الخطوط . وليس في هذا الكلام ما يلفت الانتباه ، سوى هذه الخاتمة من البيضاوي : « ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع » فهذه فكرة سنحاول استثمارها في حديثنا عن الآية : « وخضتم كالذي خاضوا » (التوبة 69) .

13 ـ ذلكم ـ ذلكما ـ ذلكنّ :

رأينا أن النحاة يجيزون تصريف حرف الخطاب بحسب عدد المخاطب وجنسه . ورأينا أن بعضهم يعتبر ذلك التصريف « تعظيما » للمشار إليه وتفخيما . ولاحظنا بدورنا أن هذا التصريف غير ضروريّ : فربّما بقي حرف الخطاب على إفراده رغم تعدّد السامعين (أنظر الشواهد في باب « ذاك ») ورغم عظمة المشار إليه . فهذا المولى عزّ وجلّ يشار إليه أربع مرّات بـ « ذلك » البسيطة في موقف تعدّد السامعين ، « أليس ذلك بقادر على ... ؟ (القيامة 40) ، ويشار إليه في سبع آيات بـ « ذلكم » : « ذلكم الله ربكم » (غافر 64) . وحتى الشيطان أشير إليه مرّة بـ ذلكم « إنما ذلكم الشيطان » (آل عمران 175) .

وفي الشعر القديم نجد أيضا هذا التصرّف بين « كَ ـ كِ ـ كُما ـ كم ـ كنّ » ولكنّه لا يخضع لقاعدة ولا لضرورة . فقد يعظّم المشار إليه كما في بيت حسّان المذكور أو بيت دريد بن الصمّة : (طويل)

« تنادوا فقالوا : أودت الخيل فارسا فقلت : أعبد الله ذلكم الرّدي؟ (67)

(67) مجاني الأب شيخو ـ ج 6 ـ ص 212 .

وقد لا يعظّم . وقد يعتبر عدد السامعين وقد لا يعتبر . وربّما وجدنا هذه القاعدة معكوسة : فهذا زهير يشير إلى متعدّد بالمفرد « ذلك » : (وافر)

« فذلكمُ مقاطع كلّ حقّ ثلاث كلّهنّ لكم شفاء » (68)

ومن هذا الاختلاف في تطبيق قاعدة التصرّف ، تصرّف اسم الإشارة بحسب المشار إليه ، وتصرف الكاف بحسب المخاطبين ، أو بحسب « عظمة » المشار إليه ، من هذا التنويع ، نستنتج أنّ هذه الصيغ لم تكن مضبوطة قديما بضابط ، وانّه ، رغم وجود هذه اللغة الأدبيّة المشتركة التي افترضها بلاشير ورابين ، فقد كانت الاستعمالات المحلّيّة تتغلّب أحيانا عند هذا الشاعر أو ذاك ، فيحتار النحاة في أمرها من بعد ، بين محلّل ومحرّم ، يحلّل هذا اعتمادا على السماع ، ويحرّم ذاك طلبا للتقنين والتقعيد والتنظيم . وهذا الصراع الدائم بين « منظّم » و« محرّر » هو الذي عبّر عنه بعض علماء الاجتماع قائلا : إنّ اللغات البشريّة تتنازعها دائما قوّتان : قوّة التنظيم Cosmos وقوّة الفوضى Chaos ، ولا يمكن أن تحيى لغة ما ، إلاّ إذا تفتّحت لهاتين القوّتين معا ، فحصل بينهما التوازن ، فإنْ غلب التنظيم ، كان الجمود والتحجّر ، وإن غلبت الفوضى ، امتنع التفاهم (69) .

هذا ، وقد وردت « ذلكما » في مخاطبة يوسف لصاحبيه في السجن : « ذلكما ممّا علّمني ربّي » (يوسف 27) ووردت « ذلكنّ » في احتجاج امرأة العزيز على صواحبها : « فذلكنّ الذي لمتنّني فيه » (يوسف 31) . فالمثال الأوّل لا يسترعي الانتباه ، فالكلام مُوجّه إلى صاحبين ، لذلك تصرّف حرف الخطاب بصيغة المثنّى . أمّا المثال الثاني ، فوجه التساؤل فيه ، كما نبّه إليه الزمخشري ، هو أن تقول : لماذا أشير إلى يوسف ، وقد طلع عليهنّ

---

(68) المجاني الحديثة — ج 1 ص 98 .

(69) الفكرة عند Jean Delacroix : La pensée et le langage وقد نبهنا إليها أستاذنا المحجوب بن ميلاد .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرأينه وأكبرنه ، بصيغة البعيد ؟ فيجيب صاحب الكشّاف بأنّ استعمال صيغة البعيد عوضا عن « هذا » ، يؤكّد جمال يوسف وعفّته ، أي بعد مناله . ويُردّ على هذا التأويل بأنّ التعظيم حاصل بـ « كنّ » ، أي بتصريف حرف الخطاب . فلو أراد القائل أن يحافظ على الإشارة القريبة — ويوسف كان أمامهنّ — مع تعظيم شأن يوسف ، لوجب عليه أن يقول : « فهذا كنّ » الذي لمتنّني فيه .فمن هذا المثال نستنتج :

— انّ الميز بين القريب والبعيد لم يكن خاضعا لقاعدة راسخة .
— وكذلك التعظيم والتفخيم ، فقد رأينا حريّة التصرّف في شأنهما .
— وكذلك تعدّد السامعين والمخاطبين .

وإنّما هي قواعد وضعت بعد الاستعمال ، فحاولت التشذيب والتهذيب ، عملا بنزعة « التنظيم » التي أشرنا إليها ، فصارت القواعد تطبّق على اللغة فيما بعد ، وتطبيقها لا يتجاوز الجيل أو العصر ، لأنّ اللغة كائن حيّ يتطوّر ، ومهمّة المشرّع فيها أن يقرّ الاستعمال إذا عمّ وانتشر ، لا أن يمنعه بحجّة أنّ الفرّاء أو الخليل منعاه . ولا يتوقّف المشرّع المقنّن في قبوله للصيغ التي يقرّها الاستعمال ، إلاّ عند الصيغ التي يخشى منها الالتباس ، كما رأينا في شأن « هذان » الذي صار يطلق اليوم خطأ على المؤنّثين . وقد رأينا أيضا السبب الذي يحملنا على قبول صيغة « هاته » إلى جانب « هذه » ، فهذان سببان لها مبرّران : موافقتها لصيغة المؤنّث « تي » ، ثمّ انتشارها اليوم في استعمال العصر .

14 — تلك :

وردت تلك نحو أربعين مرّة في لغة التنزيل ، ولم ترد صيغة « تالك » التي ذكرت في الشعر القديم : (وافر)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

... إلى الجوديّ حتّى صار حجرا وحان لتالك الغمر انحسار (69 مكرّر)
ـ تعلّمْ أنّ بعد الغيّ رشدا وأنّ لتالك الغمّر انقشاعا (70)

والملاحظات في شأن « تلك » قليلة : فهي تستعمل للعاقلة ولغير العاقلة ، إلاّ أنها تستعمل للجمع غير العاقل ، أكثر منها للمفردة ، بنسبة اثنين إلى واحد.

تلك والضمير العائد :

في هذه الآية : « وتلك القرى أهلكناهم » (الكهف 59) ، نلاحظ اختلافا بين « تلك » والضمير العائد عليها « هم » ، وتأويله سهل بالصورة البيانيّة المعروفة بعنوان « المجاز العقليّ » كما في الآية : « واسأل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها » (يوسف 82) ، فالسؤال لأهل القرية ولراكبي العير ، وكذلك المُهلَكون هم سكّان القرية.

وفي هذه الآية : « تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض » (البقرة 253) ، نجد الاختلاف بين اسم الإشارة غير العاقل وبدله العاقل ، وقد أوّله المفسّرون بـ « تلك الطائفة من الرسل أو تلك الجماعة » غير أننا ، رغم هذا التأويل ، نلاحظ الحريّة الكبيرة التي يتّسم بها أيضا التصرّف في العاقل وغير العاقل. فهذا المثال « تلك الرسل » يعزّز ما ذهبنا إليه في شأن « أولائك » (السمع والبصر والفؤاد).

15 ـ تلكما/تلكم :

الخطاب لآدم وحوّاء في الآية : « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ (الأعراف 22) ، فتصرّف حرف الخطاب إلى المثنّى. وكذلك تصرّف إلى جمع الذكور في هذه : « ونودوا أن تلكم الجنّة » (الأعراف 43).

(69) البيت للقطامي ذكر في الصحاح ج 3 ص 1102.
(70) له أيضا : ذكر في اللسان ـ 15 ص 454.

الاشارة الى البعيد : جدول رقم 4

	المفرد	المثنّى	الجمع
المذكّر	ذلك : 307	ذانّك ذينّك : 0	أولالك : 0 ذلكما : 1 ذلكم : 043
المؤنّث	تلك : 41	تانّك تينّك : 0	ذلكنّ : 1 تلكما : 1 تلكم : 1

5 — الإشارة الزّمانيّة والمكانيّة

تدخل الأدوات الإشاريّة المختلفة كالهاء واللام وحرف الخطاب على حروف أخرى ، فتكوّن معها ظروفا للمكان وتدخل على أسماء فتكوّن ظروفا للزمان ، وهذه الظروف تكتسب صفة إشاريّة واضحة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

16 — اليوم (45) الآن (8) :

لاشكّ أنّ « أل » الداخلة على « يوم » في « اليوم أكملت لكم دينكم » (المائدة 3) ، وعلى « الآن » في « الآن حصحص الحقّ ... » (يوسف 91) ، تعرّف الوقت وتشير إليه ، فمعناها « مع مصحوبها » (71) : هذا اليوم وهذا الآن . ولئن ذكرها النحاة في باب لام التعريف ، فهي إشاريّة بدون شكّ ، وهي نفسها التي يسمّونها « اللام العهديّة » في مثل هذه الآية : « كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرّسول » (المزمّل 16/15) أي « فكذّب هذا الرسول أو ذلك الرسول المشار إليه » . وينبغي أن لا تلتبس بلام التعريف . في : ... « يؤمنون بالله واليوم الآخر » (آل عمران 114) ، جاءت لام اليوم

(71) مغني اللبيب ج 1 ص 50 .

للتعريف . أمّا في « لا طاقة لنا اليوم بجالوت » (البقرة 249) فهي للإشارة : هذا اليوم . ويتجلّى هذا المعنى الإشاريّ في عبارات كثيرة كعبارة « في الحين والحال » أو عبارة « الساعة » : « ... قد قتل أمير المؤمنين جعفرا الساعة » (72) .

وينبغي ألاّ تلتبس أيضا بلام الموصول ، أي التي تعوّض اسما موصولا ، في نحو : (وافر)

« من القوم الرسول الله منهم لهم دانت رقاب بني معدّ (73)

(أي : الذين رسول الله منهم)

17 — يومئذ (70) — حينئذ (1) :

يسند اسم الزمان إلى ظرف الزمان الماضي « إذ » ، فيكتسب صفة إشاريّة في « يومئذ = ذلك اليوم » ، « وقتئذ = ذلك الوقت» ، « ساعتئذ = تلك الساعة » الخ ... ، إلاّ إنّ هذه الإشارة تتعيّن للزمن المستقبل كما يقول ابن هشام في مثل قوله تعالى : « يومئذ تحدّث أخبارها » (الزلزال 4) ، وحتّى في مثل الآية : « فيومئذ وقعت الواقعة » (الحاقّة 15) التي يقترن فيها الظرف بفعل ماض ، فالظرف متعيّن للمستقبل في كليهما « ... لأنّ المستقبل الواجب الوقوع نزّل منزلة ما قد وقع » (73 مكرّر) . وسواء بني « يوم » في « يومئذ » على الفتح أو كُسر كما في الآية : « يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ... » (المعارج 11) فإنّ فيه إشارة إلى المستقبل الواجب الوقوع ، أي يوم الحساب ، وعلى هذا تؤوّل الآيات التي تقترن فيها « يومئذ » بزمن ماض . وكذلك الشأن في « حينئذ » الذي ذُكر مرّة واحدة : « وأنتم حينئذ تنظرون » (الواقعة 84) ولعلّ بين « اليوم » و« يومئذ » ميزا في القرب والبعد من جنس الميز بين « هذا » و« ذلك »

(72) العقد الفريد : المطبعة الأزهرية 1928 — ج 3 ص 259 .
(73) المغني ج 1 ص 49 .
(73 مكرر) المغني ص 81 ج 1 .

18 — ههنا (4) — هنالك (9) — ثمّ (4) :

بين « هنا/ههنا » و« هنالك » ، يميّز الأشموني « هنالك » على أنها لغة الحجاز كما ميّز « ذلك » الحجازيّة في زعمه على « ذاك » التميميّة . وهنا أيضا ، نقول انه لا وجه لهذا التمييز لأنّ التنزيل ورد فيه « ههنا » : « فليس له اليوم ههنا حميم » (الحاقة 35) كما ورد فيه « هنالك » : « هنالك دعا زكريّا ربّه » (آل عمران 38) . وقد يتبادر إلى الذهن انّ « هنا — هناك — هنالك » مثل « هذا — ذاك — ذلك » ، مراتب ثلاث للإشارة حسب البعد والقرب. وهذه المراتب هي نفسها التي نجدها في بعض لهجات بلادنا في الإشارة إلى المكان : « غادي — غاديك — غاديكينّ » (74) .

أمّا « ثَمَّ » ففيه معنى الإشارة المكانيّة بدون شكّ : « وإذا رأيت ثَمَّ ، رأيت نعيما » (النساء 20) ولا ندري من أين اكتسبها . وهي أيضا للبعد في زعم الأشموني .

ARCHIVE http://www.sakhrit.com

6 — عبارات إشاريّة أخرى

19 — كذلك :

هذه الأداة المتركّبة من كاف الجرّ وذلك ، التحم جزءاها فصارت كالظّرف الذي يعبّر به عن التسوية مثل « أيضا » ، وهي مذكورة كثيرا في القرآن (نحو 125 مرّة) ، منها مرّتان بكسر حرف الخطاب : « كذلكِ قال ربّكِ » (مريم 21) ومرّة بجمعه : « ... قل : لن تتّبعونا ، كذلكم قال الله من قبل » (الفتح 15) .

20 — هلمّ : (2) :

ونجد نصيبا وافرا من أسماء الأفعال التي تتركّب من هاء التنبيه كأداة أوّليّة فتكتسب صفة إشاريّة لأنّها لا تخلو أن تقع في الحديث بين متخاطبين

(74) سمع هذا التفصيل في مشيخة « الخضر » من ولاية جندوبة .

أو أكثر . من ذلك : « هلمّ » : « ... قل هلمّ شهداءكم (الأنعام 150) » « ... والقائلين لأخوانهم هلمّ إلينا » (الأحزاب 18) ، فمعناها : تعال . وللفراء في نشأتها تأويل نقله ابن فارس (75) : « وتأويل ذلك أن يقال : هل لك في كذا ؟ أمّ ! أي : اقصد وتعال » . ويقول البيضاوي في تفسير الآية الأولى (76) : « هلمّ شهداءكم ، أي أحضروهم ، وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز ، وفعل يؤنّث ويجمع عند بني تميم » ويضيف ابن هشام (77) : « وبه – أي غير متصرّف – جاء التنزيل » . على أنّ البخاري في صحيحه وابن سعد في طبقاته خرّجا حديث النبيّ (صلعم) في مرضه الذي مات فيه : « هلمّوا أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده » . فلا مبرّر حينئذ في اعتبار « هلمّ » غير المتصرّفة حجازيّة ، والمتصرّفة نجديّة . فليس فيها إذن دليل على إيثار التنزيل للغة قريش على لغة أخرى .

21 – هاتوا (4) :

« هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (البقرة 111) . يقول ابن فارس (75) : إنها بمعنى أعط على لفظ رامِ وعاطِ » ، كأنّها أمر من « فاعل/هَاتَى – يفاعل/يُهاتِي » ، على أنه فعل لم يسمع إلاّ مضارعا : « لا أهَاتيكَ » . وينحصر النقاش بين النحاة في التساؤل أهي اسم فعل أم فعل أمر ، وإلى الفعليّة يذهب الأشموني (78) مستدلاّ بتصرفه مع الضمائر البارزة . ويقول غيرهم إنّما هي أمر « آتى/يؤاتي » ، تخفّفت فيه الهمزة فصارت هاء ، كما يحدث في لهجتنا : اسأل = اسهَلْ . ويرى البحّاثة « بارث Barth أنّها اسم إشارة محض . أمّا النسفي (79) ، فيقول إنها بمنزلة الفعل « هاء » بمعنى « أحضر » .

---

(75) الصاحبي ص 175 .
(76) أنوار التنزيل ج 2 ص 213 .
(77) شرح القطر ص 30 .
(78) الأشموني ج 2 ص 490 .
(79) تفسير النسفي ج 1 ص 65 .

22 ـ هاؤم (1) :

ومعناها «خذ»: «هاؤم اقرأوا كتابيه» (الحاقّة 19) . ويقول ابن هشام (80) إنّ الهمزة تصرّف عوضا من حرف الخطاب ، أي إنّها قد تتصرّف بالكاف كما هو الشأن في اللهجة العاميّة عندنا : هاكْ ! ـ هاكِ ! ـ هاكُمْ ! ويكاد النحاة يتّفقون على فعليّتها ، بدليل «كتابيا» المنصوب على المفعوليّة ، رغم أنّ قوما قالوا : بل هو مفعول اقرأوا .

23 ـ هيهات (2) :

« هيهات هيهات لما توعدون » (المؤمنون 36) . أحصى الأشموني فيها ستّا وثلاثين لغة وقال انّ الحجازيّين يفتحون تاءها ويقفون بالهاء ، وان تميما تكسرها وتقف بالتاء . فهل يعني هذا انّ التنزيل آثر اللهجة التميميّة المفتوحة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

24 ـ هيت (1) :

« ... وقالت : هيت لك ! » (يوسف 23) . ذكر فيها البيضاوي لغات كثيرة ، منها أنّ « هيت » من هاء/يهييء إذا تهيّأ ، ومعناها استعدّ ، وبنيت على الفتح مثل أين .

7 ـ الموصولات الخاصّة : الذي ـ التي الخ ...

قد يتبادر إلى الذهن إنّ هذه الموصولات تتألّف من ثلاثة عناصر هي : أل + ا + ذي/تي ، أي من عناصر إشاريّة تشارك كلّها في تأليف أسماء الإشارة .

أ ـ أل :

رأينا أنها أداة إشاريّة في ما يسمّى بلام العهد ، ولها أيضا صفة موصوليّة تخوّل لها الدخول على الفعل : (بسيط)

(80) المغني ج 1 ص 349 .

« ما أنت بالحكم التُّرضى حكومته
ولا الأصيل ، ولا ذي الرأي والجدل (81)

وعلى الجملة الاسميّة : (وافر)

« بل القوم الرسول الله منهم هم أهل الحكومة من قصيّ

وعلى اسم الفاعل والمفعول : « والمقيمي الصلاة ... » .

ولا عبرة بمن رأى أنها جزء من الموصول « الذي » حذفت بقيّته لضرورة شعرية أو لغير ما ضرورة ، وإنّما تكوّن موصولا بمفردها . على أنّ رابين (82) لا يرى هذا الرأي ، أي التحاق « أل » ببقيّة الموصول في وقت من الأوقات ، بل يرى أنّها جزء منه لا يتجزّأ مثلما في العبريّة « هـلاّزاه hallazeh » والأمهريّة « ألاّزيه allazih » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـ اللام :
قد رأينا صفتها الإشاريّة في « ذلك » وما يليه .

ج ـ ذي :

وهي صيغة « ذو » اليمنيّة (الطائيّة) في حالة الجرّ ، وقد أشرنا سابقا إلى قرابة « ذي » الإشاريّة (هذي) مع « ذي » المحوّلة عن « ذو » ، وإن كان بعض النحاة لا يجيز تصريفها . وقد تعرّض لها رابين أيضا (83) فقال إنّ « ذو » المرفوعة انتقلت ، في جهات واسعة من الجزيرة العربيّة ، إلى ذي المجرورة ، محافظة على صبغتها الموصوليّة ، قبل التحوّل إلى الوظيفة الإشاريّة ـ بدخولها في تركيب « هذي » مثلا ـ ثمّ عادت إلى الموصوليّة المحضة بدخولها في تركيب الموصول « المتطوّر : الذي » . غير أنّها ، في نظر رابين ،

(81) البيت للفرزدق ، ذكره ابن عقيل ج 1 ص 136 .
(82)و(83) رابين ص 77 و 204 وص 89 .

حافظت أيضا على بنائها ولازمت الصيغة الواحدة ، شأن جدّتها البعيدة « ذو » . وعلى هذا الأساس يؤوّل رابين الآية : « وخضتم كالذي خاضوا » (التوبه 69) بأنّ « الذي » غير متمكّن ، لا في الإعراب ولا في التّصرف . فلو كان مُتمكّنا ، لقلنا : الذين ، أو اللذان أو اللذّين . ويقول انّ هذا الموصول الجديد « الذي » ، ورد على الحجاز آتيا من اليمن ، فبذّ موصول الحجاز المعمول به إلى ذلك الوقت ، وهو « ذي » ، وحافظ مدّة من الزمن على بنائه الإفراديّ . ويستدلّ رابين على رأيه هذا في بناء « الذي » ، بأنّ القرّاء لم يستغربوا قطّ هذا الاستعمال للذي في الآية (69) من سورة التوبة .

وقد يُردّ على رابين بأنّ المفسّرين ، لئن لم يستغربوا وجود « الذي » مع « خاضوا » ، فإنّ ذلك لم يمنعهم من التماس التأويل والتعليل : من ذلك أنهم رأوا في « الذي » تخفيفا « للذين » بحذف نونها ، على عادة بلحارث ، وقد درجت عندهم « اللذا » عوض « اللذان » و« اللذي » وحتّى « اللذْ » بسكون الذال عوض «الذين» : (رجز)

« فبثُّ مَنْ شرٌّ من اللذْ كيدا كاللذْ تزبّى زبية فاصطيدا » (84)

ونسبوا أيضا إلى هذيل صيغة مرفوعة « اللذون » ، وزاد المغني واللسان : « اللاؤون/اللائين » : (وافر)

« همُ اللاؤون فكّوا الغلّ عنّي بمرو الشاهجان ، وهمْ جناحي (85)

ويرى رابين قرابة بين « اللائين » وبين « اللاءِ » الحجازيّة . و« اللاء » حسب رأيه ، هي الصيغة القرآنيّة التي كانت تكتب عند النزول « ألّى » ، فإذا تهجّوها ، قالوا : « اللاء » ، وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء نقلا عن ابن كثير ، أو قالوا : « ألْلاَيْ » ، وهي قراءة ورش الذي نقل قراءة نافع

---

(84) هوزقارتن : أشعار الهذليين .
(85) مغني 2 ص 410 ولسان 15 ص 454 .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدني ، فكأنّ قراءته هذه صيغة وسطى بين « ألْآيْ » الحجازيّة والموصول « المتطور » المؤنّث « اللائي » . على أنّ هذه الصيغة ، في نظر رابين ، لم تكن خاصّة بالمؤنّث ، بل ، في وقت من الأوقات ، صلحت للمذكّر والمؤنّث معا ، بدليل القراءة المنسوبة إلى الأخفش نقلا عن ابن عامر الدمشقيّ : « للذين يؤلون من نسائهم » (البقرة 226) قرأها : « واللاء يؤلون ... » .

وقد سبق لنا أن لاحظنا القرابة بين الـ « ألاء » والـ « لاء » ، أي بين الإشارة والموصول في هذه الصيغ من الجمع ، وسقنا عليها شاهدا ورد في اللسان (86)

وقد تزيد هذه الشواهد التي ذكرها الأشموني (87) ، تزيد توضيحا للقرابة بين « الألاء/الألى الموصولة ، وألاء/ألى الإشاريّة : (طويل)

« وتبلي الألى يستلئمون على الألى تراهنّ يوم الروع كالحدإ القبْل »

في هذا البيت جاء الموصول « الألى » بمعنى الذين في الصدر وبمعنى التي في آخر الصدر ، وكلاهما مقصور ، وقد يمدّ ان نحو : (طويل)

« أبى الله للشمّ الألاء كأنّهم سيوف أجاد القين يوما صقالها »

على أنّ هذه الصيغة من الموصول لم تذكر في التنزيل .

25 — الذي :

في استعمالاته الكثيرة — 288 — يختصّ هذا الموصول بالمفرد المذكّر ، ما عدا الصورة التي ورد بها في « وخضتم كالذي خاضوا » (التوبة 69) وقد عرضنا لتأويل رابين ، ومفاده أنّ «الذي » مبنية على الإفراد ، فتكون ، هنا ، لغة قديمة غلبت صيغة « الذين » المتطوّرة كما قال . وعرضنا أيضا لقول مَنْ أوّلها بتخفيف الذين على غرار هذا البيت للفرزدق ، وقد ساقه الزمخشري : (كامل)

« أبني كليب انّ عمّيّ اللّذا قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا »

---

(86) انظر التقييد رقم (18) .
(87) شرح الأشموني ج 1 ص 68 .

(ولنلاحظ عرضا انّ الشاعر لم يفصل بين اسم انّ وخبرها . ألأنّ بقاء الخبر على الرفع يمنع الشبهة ؟) كما عرضنا لقول من فسّر الذي بالجنس والقوم حتّى يبرّر استعمال ضمير الجمع ، وهو تأويل البيضاوي الذي ساق هذا البيت : (طويل)

وانّ الذي حانت بفلج دماؤهم هم ُ القوم كلّ القوم يا أمّ خالد

وإنّ لنا في الآية « كمثل الذي استوقد نارا فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم ... » (البقرة 17) دليلا آخر على مجيء الذي مبنيّا على الإفراد ، فهذه ثلاثة أمثلة (والثالث هو آية الزمر 33 : « والذي جاء بالصدق وصدّق به أولائك هم.. ») ، فلا حاجة إلى الالتجاء إلى التأويلات والتقديرات ما دمنا مقتنعين بتطوّر اللغة : فهذا الموصول بصورته المبنيّة سدّ بعض الحاجة وقتا ما ، ثمّ لمّا زادت الحاجة وتنوّعت ، احتاجوا إلى تطويره ، فخلقوا منه الذين واللذان الخ... وعلى كلّ حال ، فوجوده مبنيّا في ثلاث آيات يقوم دليلا على تأثير لهجات محلّيّة في لغة التنزيل ، إلى جانب اللهجة الحجازيّة أو اللغة « الأدبيّة » المشتركة .

26 — التي :

قد استعملت نحوا من 27 مرّة للعاقلة ولغير العاقل « واسأل القرية التي ... والعير التي ... » ، وربّما استعملت كذلك بصيغة المفردة تحقيرا للآلهة في هذه الآية : « وما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون » (هود 101) .

27 — اللذان/اللتان :

« واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » (النساء 16) . « ربّنا أرنا اللذين أضلاّنا من الجنّ والانس » (فصّلت 29) ، ولا ذكر للمؤنّث .

فصل من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسى

(الخبر عن التونسيين بالآستانة)

بقلم : علي الشنوفي

1) تقديم :

إنّ دراسة التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر ما زالت في رأينا منطوية على كوامن هي في حاجة إلى الاستجلاء رغم ما أنجز من دراسات قيّمة . فما عدا ما هو مطبوع من مراجع البحث ، بقي مرجعان هامّان : أوّلهما **الوثائق المحفوظة** بخزينة الدولة التونسيّة وينبغي تكميلها بالوثائق القابعة في خزينات الدول التي كان لتونس اتّصال بها . ثم **المخطوطات** التي جمعت في دار الكتب الوطنيّة بتونس .

أمّا في خصوص المخطوطات فلنا ثلاثة مراجع :

أولا : كتب التاريخ وأهمّها الإتحاف وقد طبع أخيرًا .

ثانيا : الرحلات وأهمّها في ما نعلم الرحلة الحجازيّة للشيخ محمد السنوسي .

ثالثا : الكنانيش المبعثرة والتي أكثرها أهمل فيه ذكر اسم المؤلّف . وإذ نحن نقدّم اليوم فصلا مقتطفا من الرحلة الحجازيّة يتعلّق بإقامة التونسيّين بالآستانة نحاول أوّلا التعريف بالشيخ محمّد السنوسي وبمضمون رحلته لإبراز أهميّة الفصل المقتبس .

1 – ترجمة محمد السنوسي (٭) :

ولد محمّد بن عثمان بن محمد السنوسي بتونس في 22 ذي القعدة سنة 1267/ 18 سبتمبر 1851 . ونشأ في بيت علم . تولّى جدّه وأبوه القضاء المالكي . والتحق بجامع الزيتونة فصار من أنجب خرّيجيه وبه جلس للتدريس بعد أن أحرز شهادة التطويع سنة 1287/1870 . وذاع صيته فعيّنه المشير الصادق باي معلّماً للأمير محمّد الناصر باي . وفي 30 محرّم 1291/19 مارس 1874 انتخبه أستاذه محمد بيرم V كاتبا أوّل لمجلس جمعيّة الأوقاف . وفي 5 شعبان 1293/26 أوت 1876 عيّن محرّرا لجريدة الرائد التونسي . وتواصل نشاطه بالمؤسّستين إلى أن انفصل عنهما في 5 رجب 1298/3 جوان 1881 لما يئس من الوزير مصطفى بن إسماعيل إذ لم يجد في مناصرته عونا على الإصلاح . وانتصبت الحماية الفرنسيّة بتونس فتاقت نفسه إلى هجرة البلاد فما كان من الدولة أوّلا الا منعه وتعلّل بأداء فريضة الحجّ فأذن له بالسفر وغادر تونس في 7 رجب 1299/25 ماي 1882 وآب إليها من رحلته الحجازية في 26 ربيع الأول 1300/4 فيفري 1883 . وإذاك التحق بوظيفه الذي كان تخلّى عنه بجمعية الأوقاف وعيّن مدرّساً بجامع حمّودة باشا المرادي . وفي 18 جمادى الثانية 1302/4 أفريل 1885 تزعّم المظاهرة الاحتجاجية الكبرى ضدّ النظام البلدي ووصلها بحركة جمعيّة العروة الوثقى . وفي 6 شعبان 1302/21 ماي 1885 ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه وعزلته عن وظيفه ونفته مدّة ثلاثة أشهر إلى قابس دخل إثرها في مناصب قضائية بالمحكمة المختلطة ثم بالعدلية التونسية .

٭) انظر : الفاضل ابن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس . 1965 ص 28–32 .
انظر : محمد النيفر : عنوان الأريب . ج II ص 145–153 . ط. تونس 1932 .
انظر : محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ج I ص 416–417 ط. القاهرة 1931 .
انظر : Revue Tunisienne : T, VIII. 1901, pp. 103-4 ; T, IX. 1902, pp. 432-437
انظر : المنصف الشنوفي : مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تونس . حوليات الجامعة التونسية العدد الثالث سنة 1966 . ص 78 .
انظر : محمد بن عثمان الحشائشي : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب . ص 143 . بيروت 1965 .

وفي 8 ذي القعدة سنة 1889/1306 رحل إلى باريس لمشاهدة المعرض العام بها وعاد الى تونس في 6 ذي الحجّة 1306/غرّة أوت 1889 . ثم بقي على نشاطه الفكري والقلمي إلى وفاته ليلة السبت 24 رجب سنة 17/1318 نوفمبر سنة 1900 .

2 — آثارهُ :

ترك محمّد السنوسي آثاراً أدبيّة قيّمة منها ما طبع ومنها ما زال مخطوطا .

آثاره المطبوعة :

1) جزءان من مجمع الدواوين التونسيّة (1) . المطبعة الرسميّة . 1878/1296 .

2) كتاب غرر الفرائد بمحاسن الرائد (2) . المطبعة الرسميّة . 1878/1296.

3) كتاب المقاولات العشر .

4) كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف في تاريخ فقهاء الدولة الحسينيّة بتونس المحميّة (3) . المطبعة الرسميّة . 1891/1309 ، 304 ص .

5) مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري . تونس 1305/ 1887 ، 1888 : 272 ص .

6) الاستطلاعات الباريسيّة (4) . المطبعة الرسمية . 1891/1309 ، 279 ص .

7) كتاب درّة العروض (5) . المطبعة الرسميّة . 1880/1297 .

---

(1) اشتمل مجمع الدواوين على عشرين جزءا جمع فيها إنتاج الشعراء التونسيين . أنهى تأليفه في خمس سنوات من 1870/1287 إلى 1875/1292 . والجزءان المطبوعان يتعلقان بأستاذه الشاعر محمود قابادو . الجزء الأول به 171 ص. والجزء الثاني به 210 ص. منها 50 ص. تقاريظ . دار الكتب الوطنية بتونس : رقم 998 .

(2) لم نعثر له على أثر بدار الكتب الوطنية وغاية ما نعلمه عنه ما ذكره محمد السنوسي في الرحلة الحجازية (ج II)عند حديثه عن فصله الإفتتاحي لجريدة الرائدالتونسي بعنوان «لا قول إلا بعمل» أو ما ذكره إسحاق قطان (I. Catton) في : Revue Tunisienne IX, 1902, p. 433

(3) يشتمل على مقدمة بها خلاصة تاريخ تونس إلى عهد المشير الصادق باي وخمسة أبواب في تراجم .

(4) استغرقت قرابة الشهر غادر تونس يوم الخميس 6 ذي القعدة 4/1306 جويلية 1889 وعاد إليها يوم الخميس 4 ذي الحجة/غرة أوت الموالي .

(5) درة العروض منظومة في علم العروض في 13 ص. توجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 33110 بعنوان تآليف آخر للمؤلف عنوانه الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادات الأشراف في 15 ص. المطبعة التونسية 1879/1296 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

8) الروض الزاهر في إسناد الحبس للاسلام الباهر. حرّره سنة 1303/1886 ـ 1885. ونشره محسن زكرياء. المطبعة التونسية. 1348/1930.

9) المورد الأمين في ذكر الأربعين (6).

آثاره المخطوطة:

1) مجمع الدواوين التونسيّة (7).

2) خلاصة النازلة التونسيّة (8).

3) نبذة تاريخيّة في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل (9).

4) ديوان شعر (10).

5) كنانيش بها قصائد ومقامات (11).

6) الرحلة الحجازية (12).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3 ـ محتوى الرحلة الحجازية:

لئن اتّبع محمّد السنوسي في تحرير رحلته الإطار الإعتيادي لمثل هذه الرحلات (13) فإنّه امتاز باقتضابه للنعصر الأساسي من ذكر خبر الحجّ ومناسكه

---

(6) ونشر محمد السنوسي عدة رسائل أخرى نذكر منها رسالة تفتح الأكمام ورسالة نشر البساط في نازلة الفسفاط ورسالة نفحات الاخيار بمولد النبي المختار ورسالة نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد.

(7) يوجد بدار الكتب الوطنية، قسم المخطوطات، ثلاثة أجزاء من هذا المجمع: ج: 1 و 2 تحت رقم 16628؛ ج: 3 تحت رقم 16633.

(8) دار الكتب الوطنية. رقم 16635. يقع في 50 صفحة (ح 25–16) وفي أوله قصيدة في المخترعات الجديدة (من ص: 1 إلى ص: 11).

(9) دار الكتب الوطنية. رقم 03749. يقع في 31 ورقة (ح 22–16) انظر تعليقنا رقم 39 من النص المقتبس.

(10) دار الكتب الوطنية. رقم 16629 يقع في 247 صفحة (ح 21 X 13).

(11) دار الكتب الوطنية. الأرقام 16630 ـ 16631 ـ 16632.

(12) دار الكتب الوطنية رقم 3346 ج 1: 181 ص، ج 2: 279 ص، ج 3: 271 ص.

(13) انظر Hadj Sadok M., Le genre « Rihla », B.E.A. n° 40, nov.-déc. 1948, pp. 195-206

فلم يخصّص لذلك إلا بضع صفحات من بين ثلاثة أجزاء مجموع صفحاتها 731 . فاستهلّ الجزء الأول بذكر الآيات والأحاديث الخاصّة بالحج وعقّب بحديث عن فوائد السفر ثم تحدّث عن مبدإ سفره وعن أقسام القارّة الأوربية وعن إيطاليا فأسهب في وصف معالم مدنها ولاسيّما نابلي وبومباي وصانبيترو وليفورنو، وفي الأثناء تحدّث عن الجمعية « الفريماسون » وأطنب في وصف ما لفت نظره على الخصوص من المعارض والمتاحف والمسارح وعادات الأهالي .

أمّا الجزء الثاني فيحتوي على ذكر السفر إلى آسيا ويبتدىء بوصف بلاد الترك وعاصمتها الآستانة فيسهب في وصف جوامعها ومتاحفها ويخصّص فصلا للسلطان عبد الحميد ثم آخر للتونسيين المقيمين بالآستانة وهو موضوع دراستنا ثم يصف أزمير ثم يصف مراحل سفره إلى مكّة ويخصّص للحديث عن قيامه بمناسك الحج صفحات قلائل من ص 90 إلى صفحة 96 ويذكر أنه تمكّن مدّة إقامته بالحرمين من معرفة أعلام من علماء الإسلام ثم يتحدّث عن المدينة ومنها رحل إلى دمشق حيث اجتمع بالأمير عبد القادر الجزائري وكانت مدينة بيروت خاتمة المطاف فيصف عودته إلى تونس عن طريق مالطة وبذلك ينتهي الجزء الثاني .

أمّا الجزء الثالث والأخير فيحتوي على تراجم الرجال الذين اتّصل بهم أثناء رحلته .

4 ـــ أهميّة الفصل المقتبس :

إنّما سبب اختيارنا لهذا الفصل ونشره علاقته المتينة بدراسة التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر إذ محتواه يمكّننا من إلقاء أضواء جديدة .

أوّلا : على حقيقة مواقف خير الدين وأفكاره قبل مباشرته للحكم بتونس فأثناءها ثمّ بعدّها مع إنارة جديدة لقضيّة الحكم المطلق والحكم الشوري وكيف كان مدار الأمر فيهما أثناء تلك الفترات الحاسمة من التاريخ التونسي .

ثانيا : على إقامة نخبة المصلحين التونسيّين بدار الهجرة بالآستانة وجدوى الهجرة وعدمها .

ثالثا : على نماذج من النثر السياسي .

رابعا : على نماذج من النثر المسجّع .

في الفصل حوار (14) له أهميّة فائقة ترتكز على استجلاء نظرية الحكم المطلق الاستبدادي والحكم الشوري (15) كما كان يفهمها أعلام الفكر وأركان الحركة الإصلاحيّة أمثال أحمد ابن أبي الضياف وخير الدين ومحمد بيرم الخامس والجنرال حسين . ونلاحظ من ذلك الحوار تشدّدا في لهجة محمّد السنوسي يشهد على صدق إخلاص الرجل لحركة النهضة والإصلاح ببلاده كما نلاحظ تراجعا ملموساً في مواقف خير الدين أثناء مباشرته للسلطة وإقراره بذلك التراجع مدّة إقامته بالآستانة وهو الذي سطّر في كتابه أقوم المسالك أنّ الهدف الأسمى من تأليفه إنما هو المساهمة في تحرير الفكر الإسلامي من التقليد وأنّ الحريّة أمر مقدّس بالنسبة للشعوب (16) . فالفصل المقتبس وثيقة بالنسبة لهذا الموضوع .

---

(14) انظر : الفصل المحقق من الرحلة ص 50 : « ... وقد اجتمعت به هنالك عدة اجتماعات فصرح لي في بعضها بغاية ما كان عنده من حيث ... وقال لي ... فقلت له : لا يخفى على سيادتكم أنكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا ... ولو أن سيادتكم قيدتم الدولة بمجلس شوري ... » ص 51 « ... ولكن بشهادة الله أنه تعاطى التصرف في الوزارة ... » ص 52 « ... ولكنه بعد أن استقر في خطة الوزارة الكبرى بتونس ... تنكر لمن كانوا في إعانته ... وأخذ بيده زمام الإطلاق » . ص 53 .

(15) انظر : إتحاف : ج 1 ص ص 6–71 : الملك وأصنافه . ثم ج 5 ص 38 .

انظر : أقوم المسالك : ص ص : 74–80 .

انظر : صفوة الاعتبار : متفرقات ولا سيما فصل 15 ج. 1 .

انظر : المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر 1968 ، ص ص 25–26 .

(16) انظر : الفصل المحقق : ص 53 : « ... فكتبت فصلا افتتاحيا جعلت عنوانه « لا قول إلا بعمل » ... » .

ثم نحن نلمس من خلال هذه الوثيقة خيبة المهاجرين التونسيين (17) الذين كان موقفهم إزاء الباب العالي موقفا عاطفيا (18) فانّهم اكتشفوا أثناء إقامتهم بالآستانة أنّ الحالة بالبلاد العثمانيّة أشدّ سوءاً مما هي عليه بالبلاد التونسية إذ السلطنة كانت تعاني إذّاك سكرات الاحتضار . وقد رأى خير الدين سبيله تزداد وعورة ولم يجد بدّا من الانسياق للرضى بالإقامة بالآستانة وإن كان في حقيقة أمره لا يودّها بصفة نهائيّة (19) أمّا الشيخ محمد بيرم الخامس فقد فضّل الهجرة إلى مصر والإقامة بها وأمّا محمّد السنوسي فكان أوفر إدراكا لتشعبات الظرف ودليلنا إلقاؤه السؤال على خير الدين .

فغير خافٍ أنّ مشكلة قد مثلت إذاك في وجه أولئك الأعلام من النخبة التونسيّة المفكرة الحاكمة في تونس وقد خسرتهم تونس إذ آثروا الهجرة إلى البلاد العثمانية وفي اعتقادهم أن تلك الهجرة تمكّنهم من العمل المصلح إلا أنّ آمالهم ضاعت أدراج الرياح . ولعمري قد كان من واجبهم البقاء داخل البلاد التونسية ، لكنّ هجرتهم كانت تحقيقاً لنشاط دهاة السياسة الفرنسية فقد شجعوا عليها .

أمّا الشيخ محمد السنوسي فقد اتخذ موقفا أمام قضيّة الهجرة وهو موقف بشّر بموقفه سنة 1885/1302 عندما تزعّم الحركة القومية الأولى بتونس في مكافحة

---

(17) انظر : الفصل المحقق : ص 54 : « ... وقد أظهرت له (خير الدين) في إحدى الليالي تعجبي من ... فصدق تعجبي من كلا الأمرين وقال لي ... » « ... وقد سمعت ما يقرب من جوابه من بقية الذين ساقتهم المقادير إلى بلاد خلافة الإسلام ... » .
انظر : الرحلة الحجازية : ج II ص 42 : « ... وقد أخبرني الشيخ محمد بيرم أنه عندما ... » .

(18) انظر : بخصوص موالاة التونسيين للخلافة العثمانية : إتحاف : ج V ص ص 131–132 . ج VI ص ص 13–30 .
انظر : H. Laoust : Le réformisme orthodoxe des « Salafiya » R.E.I., 1932, pp. 175-224.

(19) انظر : الرحلة الحجازية : ج II ص 32 « ... لأني لست على يقين من إقامتي في هذا البلد وربما ... » .

الحماية الفرنسية (20) . فأصحاب العقول المفكّرة من التونسيّين الذين فضّلوا البقاء بالوطن على الهجرة إلى تركيا إثر سقوط وزارة خير الدين ، قد كان يأس من هاجر درساً لهم استثمروا فائدته . وعندما انتصبت الحماية الفرنسية بتونس ثبتوا بالبلاد وصمدوا في وجه الأجنبي . وهذا تحوّل في كيفيّة الكفاح فلم يتردد زعماء الإصلاح في الاختيار بين الهجرة وبين الكفاح وجها لوجه بل فضّلوا البقاء .

وبالإضافة إلى هذه النظريات السياسية التي تفيدنا بها هذه الوثيقة ولاسيّما نظريّة محمّد السنوسي في الثورة والانقلاب السياسي (21) يلفت نظرنا أسلوبها من ناحيتين ناحية النثر السياسي وإلى جانبها ما كان مستوليا على أقلام العصر – وأسلوب محمد السنوسي أحسن نموذج لذلك – من سجع وتصنّع وبديع ومن هذه الوجهة تدخل هذه الوثيقة في ملفّ قضيّة النثر السياسي بتونس في القرن التاسع عشر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهذا الفصل من الرحلة الحجازيّة هو إذن وثيقة تصوّر موقف التونسيّين في ظرف حاسم من تاريخهم إبّان انتصاب الحماية الفرنسية إزاء الخلافة العثمانية من ناحية وقضيّة الحكم السياسي بالبلاد التونسية من ناحية ثانية .

وهي وثيقة جديرة في نظرنا بأن تضاف إلى ملفّ التراث التونسي إذ مقابلتها هي والآثار الأخرى للمؤلّف ومعاصريه بما طبع وبما يطبع من شأنها أن تلقي أضواء جديدة على التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر .

---

(20) انظر : محمد السنوسي : خلاصة النازلة التونسية . مخطوط رقم 16635 ، دار الكتب الوطنية بتونس . ص.ص. 12 – 50 .

(21) انظر : تحقيقنا للفصل المقتبس . ص : 54 . وعند ذلك قلت له : « أما الاستبداد بشرط الصدق والنصيحة فلا يخفى أنه ... » .

يجي رطلة مضوا من ع املكهم ومن ۔ فلا ارى حصولا ما تعهدت مغنى بها.

بمن هنا المابا منوارا اعمنا نه ۔ مجموا منهم يحمي الصب معها

انها معوط باسماء شرعا دعنا ۔ من فيه خمسرا وعاقبهن وصب

وامثالها كالنكمي وحلواه فسد ۔ كروة العمد فيما كان اوحسب

بعض منها وفيها انه هعسرا ۔ وبعض امور كل فيما الخاز كرو صعد

وامع عطلية الانسوى من همه ۔ بما في بيها هكل من فهم نا. لو في به

وامر بن فنطو فيه العهي بنثونه ۔ اصعر ما هعو واما مو لموا جب

كلهم من يتمو حسبين ... سنة ۔

ما خبا. ان العمهما انوضي مخبه ابو بن ملكنا بعد انفصاله من ابو زا رة انو نيف للاصبا وافتخارا. انمه مالة بن عزلي ابيه فيهم له امتنع النجما فلا بته على من صعا هو امعه اوفنى رضا مي واتى بي اصلطان نهله واجل مرنا منه محلس مهده ابو له را نصوارنه امعهو في نها زاعده كعبته و مبعو منعلا بلا كيل ما ت اصلطان ابنها اخيا و كدو بلة وعنما حلاب باجلاها نه نسبة ما فيهما الة ابو لة بنزاه حمصدي ابن المعهل هو في ذا اهبه له ما مها. رهنتم بافنا النكا رو بها ابهم نتونس وفسد اوله اى مهده يعم منهلا ففي جم بيهو انهم كا زن بحر حجب نه لله و فله ونا لكم العجعو لحنمهلا مقانة ابخط وفهم منها امي الساوا.

حرامهم نفه ادكر لاغم بين اهله اصلي وهو به مشلة ابخا و تعد عنه ابيه له مها. حسين الذي كان مشعا و المطلبة باعمار في مغيا سعد في نه ◆ نازلة فابنصامو ال ابو له اصلش فعجب فصامه طاب ابخط منه ود الي انجاه المعمر. المنزل محمد مستم اه انجفوا ابخا مله سيانة لتهم هه ما منه حمر ابيه

عكف بها الى ابداء بقوله •

خليلي ان ابصرتما من تعنتي • وابغي جوابا منه حتى اشتهي محنتي

لزاتم بما في فنها فعاله اعني • اخترع آخذه في كل ... لهنه

• حبس مشبه للغصان والمضم •

بلادي واجنا من اعوام رميها • ومنزه اخواني تسامى بي بهما

نعى الام للابنا تعد صلوبها • وما غاب الا انى حسبي رضيهما

• ولا بد من فوضا فة صبح الى الدمع •

وقد كان اخلفه كلاما ابن فضيل الى الاره . حسب الانشاء عن ضيعة الانشاء وصيكن الا بجواد عن ان يهب الطيبة نزار لها صبرا فصيحه فتيمي اتصح اي معرانه اقوام . وزمان في فيه تعليه اشتهيه وذلك اعلهم ما نا قرانه اقدمين وتمتعوا به الاحكام اليه ولو عوابه . ومن سال الله صعقا جميع والبلاغة وان يتعنا بجعل مهمول وهم اشغل بالعباد انكر به وهابه . وقد قصر ما رام ة اه مجله اسجى مسد عمرا غنج وفوصه في حسن عهد كهم الجمر له عمرانه فتصلونا بنعما . عن كلهم نهب وانى عهم كل حال الكبر ، دام بجميع المعاني ونجاح الاتصاله . واما فقهم ان جوة بحرا نعشه الايام . فسال الله ان يتقي لنا بهما اتمهم الاخيلم . وعفى الله لا عيما . بجميع الامن وجبها فضل الكتبه . ونرجوا ان يطلع منها جنات احبكم فهو اعلمه افضه من فهم عرانه يلهث بحوك وحسن انابه كما يطلع ان ثلاثا نجم اشهد وعلى الخصوص اهل فنا اصحا . حاهم الله وجملة الاتباع عكم في ما في حاله اي الله صفحكم وتميزكي العلم تجارتا نسي التشيع واسلام ضعف خصه كسونا منهكم كم قطعه ده كم عوافسوسي ويضه امه وكي في دمانه [illegible] ١٣٦١

2) تحقيق الفصل :

الخبر عن التونسيّين فى الآستانة (1)

لا خفاء أنّ الوزير التونسيّ خير الدين باشا (2) بعد انفصاله من الوزارة التونسيّة (3) للأسباب الظاهرة والخفيّة (4) ممّا لا يشذّ عن تاريخ البلاد تيسّر له التنقّل لبلد الخلافة بأمر من السلطان (5) بواسطة الشيخ محمّد ظافر (6)

---

(1) هؤلاء التونسيون هم نخبة من زعماء الإصلاح بتونس فى النصف الثاني من القرن العشرين : خير الدين ورستم ومحمد بيرم V ومحمد العربي زروق . وقد اضطرهم انتصارهم للخلافة العثمانية بعد فشل وزارة خير الدين إلى الهجرة من تونس إلى الآستانة .

(2) ولد حوالي سنة 1820/1236 وأصله من قبيلة أبازه الضاربة بجبال الجركس فى شمال غربي بلاد القوقاس . ودخل تونس حوالي سنة 1838/1255 وتوفى بالآستانة فى 8 جمادى الثانية 30/1307 جانفي 1890 ونقل جثمانه إلى تونس فى 28 مارس 1968 واحتفل بدفنه بمقبرة الشهداء فى 9 أفريل 1968 . انظر : ترجمته المراجع الآتية حسب الترتيب الزمني :
– إتحاف : ج IV ، ص 156 ؛ ج V ، ص ص : 19–32–42–63–95–96–97–99–
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 181-225
– مجلة الثريا : عدد 6 . سنة 1944 : خير الدين : مقال للفاضل ابن عاشور .
J. Ganiage : Les origines du Protoctorat Français en Tunisie, Paris, 1959 pp.. 81 و 371–374 و 433 و 483
– المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر . 1968 . 31 ص. .
– محمد الصالح مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف ، تتمة لإتحاف أهل الزمان ، [رسائله مع خير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص ص : 79–83 .
– محمد الصالح مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ، [رسائل انطوان كونتي لخير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص ص : 9 ، 46 ، 59 .

(3) فى رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(4) انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 471-476

(5) الغازي عبد الحميد الثاني (1842–1918) دامت خلافته من 1876–1909 . انظر : ترجمته : دائرة المعارف الإسلامية . ط 2 ((E.I., 2)) ، مجلد 1 ، 65–67 (مقال J. Deny) محمد السنوسي : الرحلة الحجازية (مخطوط) ، ج II ، ص ص 38–48 . فى خصوص استقدام السلطان عبد الحميد خير الدين إلى الآستانة لتوليته الصدارة العظمى انظر أسفله تعليق رقم 66 .

(6) محمد بن حسن بن حمزة بن عبد الوهاب ظافر المدني ولد سنة 1827/1244 بمسراته حين انتصب أبوه الشيخ حسن المولود بالمدينة 1774/1194 ينشر الطريقة المدنية الشاذلية بعد أن طوف بالمغرب الأقصى وطرابلس ومصر . وإلى هذا الشيخ ارتحل شاعر تونس محمود قبادو لأخذ الطريقة وخلف محمد أباه فى نشر الطريقة فاستقدمه السلطان عبد الحميد عند ولايته وكان أخذ عنه الطريقة قبل سلطنته فاستخلصه لنفسه وحصلت للشيخ محمد ظافر بذلك وجاهة عظمى بالآستانة . (انظر : الرحلة الحجازية . ج II ص 42 ، ج III ص ص : 2–5) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأكرم السلطان نزله (6 مكرر) وأولاه رئاسة مجلس شورى الدولة (7) والصدارة العظمى (8) ثمّ تنازل عن وظيفته (9) وبقي منعّما بالإكرامات السلطانيّة في أخبار طويلة (10).

وعندما حاق بالبلاد التونسيّة ما غيّر حالة الدولة بوزارة مصطفى بن إسماعيل (11) خرج منها أمير الأمراء رستم باشا (12) الذي كان وزير الحرب

(6 مكرر) خصص له السلطان مسكنا بقصر «دلمى يقشي» وهو قصر من المرمر شيده السلطان عبد المجيد سنة 1853 . أنظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 214.

(7) هذا المجلس متركب من عضوين انجليزيين وآخرين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة المجلس تنظيم المالية العثمانية وأسندت رئاسته لخير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذي الحجة 3/1295 ديسمبر 1878 انظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 216.
— : م . ص . مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ... ، ص : 46 .

(8) في 9 ذي الحجة 4/1295 ديسمبر 1878 .

(9) في 25 رجب 1296/منتصف جويلية 1879 .

(10) لم تنقطع صلة خير الدين بالسلطان عبد الحميد الذي بقي يدعوه للاستشارة من حين لآخر وقد تخلص خير الدين بقوله لما حاول السلطان إقناعه بالرجوع لمنصب الصدارة : «إن ذلك لا يكون مجديا إلا بحصول أمرين هما صبر أيوب وعمر نوح ومن يضمن لي ذلك ؟» انظر : م . ص . مزالي : أحوال ... ص 59 وكان خير الدين من بين الوزراء الذين منحهم السلطان مواضع لبناء قصور بقرب يلدز. قال الشيخ محمد السنوسي في الرحلة الحجازية : ج II ص 32 : «وعند دخولي بالآستانة كان قصره (خير الدين) شارف التمام وقد دعاني للتفرج فيه ...» .

(11) ولد مصطفى بن إسماعيل ببنزرت حوالي سنة 1850/1267 وتولى الوزارة الكبرى بتونس في 25 شعبان24/1295 أوت 1878وأبعد عنها في 17 شوال 12/1298 سبتمبر 1881 . ولما اقترحت فرنسا على الباي إقصاءه عن الحكم جاز لأحد موظفي السفارة الفرنسية أن يكتب : «كان فراقه أوقع على نفس الباي من فقد الاستقلال» . ومات مصطفى بن إسماعيل بالآستانة سنة 1304—1887/1305 على حالة فقر لا مزيد عليه . انظر : ترجمته : المخطوطة بعنوان «نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل» : دار الكتب الوطنية ، تونس . رقم 03749 . انظر أيضا : م . ص . مزالي : أحوال ... رسالة عدد 6 ص : 53 .
J. Ganiage : Les origines... pp. 433, 475 et 483.

(12) مملوك جركسي قدم تونس في عهد أحمد باي ودرس بمكتب الحرب بباردو وولي وزارة الحرب بالدولة التونسية من جمادى الأولى1287/أوت1870 إلى شعبان 1295/أوت1878 وتوفي بالآستانة في صفر 1304/نوفمبر 1886 . انظر : ترجمته : إتحاف : جV ص 29 .
انظر أيضا : م.ص. مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف : ص ص : 32—56—66 .
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 83 et 478, n° 101.

بتونس وتنقّل أوّلا إلى مصر . وخرج منها الشيخ محمّد بيرم (13) الذي كان رئيس جمعية الأوقاف (14) وناظر المطبعة (15) ولحق بالآستانة أيضا . وخرج منها أمير اللواء محمّد العربي زرّوق (16) الذي كان رئيس المجلس البلدي (17)

---

(13) محمد بيرم V ولد بتونس في المحرم 1256/مارس 1840 . كلفه خير الدين في صفر 1291/ مارس 1874 بإدارة جمعية الأوقاف فانتخب تلميذه محمد السنوسي كاتبا أول بتلك الجمعية . وفي ربيع الاول 1292/ماى 1875 كلف خير الدين بيرم V بإدارة المطبعة فانتخب بيرم محمد السنوسي محررا لجريدة الرائد التونسي في 5 شعبان 1293/26 أوت 1876 . والملاحظ أن الشيخ محمد السنوسي عند تخليه عن منصبيه بجمعية الأوقاف والرائد في 5 رجب1298/3 جوان 1881 خلفه في المنصبين الشيخ أحمد الورتاني . وقد ساهم الشيخ محمد بيرم V في تهيئة برامج المدرسة الصادقية 1292/1875 وفي تأسيس المستشفى الصادقي وتنظيمه 1297/1879 . وقد حاول أثناء قيامه بمهمة إلى باريس في منتصف عام 1297/1879 إقناع غنبيطه Gambetta رئيس الحكومة الفرنسية بضرورة تبديل القنصل الفرنسي بتونس رسطان Roustan ولكن دون جدوى. وفي 9 ذي القعدة 1297/13 أكتوبر 1879 غادر الشيخ محمد بيرم V تونس نهائيا بمناسبة القيام بفريضة الحج فاستوطن أولا الآستانة إلى نوفمبر 1884 ثم توجه إلى مصر حيث توفي في25 ربيع 1307/18 ديسمبر 1889 . انظر : ترجمته : محمد بيرم V : صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والأمصار ، القاهرة . 1302-1311 . ج V

– Revue Tunisienne : n° 22. 1935, p. 232.

– دائرة المعارف الإسلامية . ط (1 ,E.I.) مجلد III ، 731 (مقال M. Bencheneb).

– J. Ganiage : Les origines.. p. 559 n° 89.

– محمد السنوسي : الرحلة الحجازية : ج II ص ص : 39–40 .

– زين العابدين السنوسي : محمد بيرم V : دراسة ونصوص ، تونس 1952 .

– محمد الفاضل ابن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس ، تونس 1965 ص ص 15–28 .

– فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 ص ص 64–65 ، 139–141 .

(14) أسس خير الدين جمعية الأوقاف بمقتضى أمر 19 مارس وأمر 2 جوان 1874 .

(15) سمى خير الدين محمد بيرم V مديرا للمطبعة وللرائد في ماي 1875 والملاحظ أن محمد الصادق باي كان أسس المطبعة في 20 جويلية 1860 لإصدار الرائد التونسي وجعل نظر المطبعة لحسين رئيس المجلس البلدي . انظر :

إتحاف : I.B.L.A. 1954, pp. 138-139 ; Revue Tunisienne : 1939 ; 32 V A.G.T. Carton Z 531, 3 ; Arch. Consulat Britannique à Tunis, L.B. 28.

(16) غادر محمد العربي زروق تونس نهائيا سنة 1881 إثر انتصاب الحماية الفرنسوية بعد أن كان مديرا للمدرسة الصادقية منذ تأسيسها في فيفري 1875 ورئيسا للمجلس البلدي . انظر :

Revue Africaine. XXII, 1878 ; R.A. 1954, p. 165 ; J. Ganiage : Les origines... pp. 481-482, 538-539.

انظر أيضا : إتحاف : ج VII ص 130 .

(17) تأسس المجلس البلدي بتونس في محرم 1275/أوت – سبتمبر 1858 وترأسه مدة خمس سنوات أمير اللواء حسين . انظر : إتحاف : ج IV ص 255 ، ج V ص ص 32 ، 99 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3 1944 وصفوة الاعتبار : ج III ص 22 . ملاحظة : تركب المجلس البلدي عند تأسيسه من عشرة أعضاء ولذلك سمي مقره دار العشرة : دار حسين اليوم حيث إدارة الآثار بتونس .

ولحق بالآستانة أيضا . وبعد عزل أمير الأمراء حسين (18) الذي كان مستشارا مكلّفا بالمعارف (19) مقيما ببلد قرنة (20) في نازلة قابض أموال الدولة القائد نسيم شمّامة (21) صار أيضا متردّدا في اتّخاذ المقرّ .

وآل من أمر رستم أن التحق أيضا بالآستانة لتزوّجه بابنة خير الدين (22) (ص 49) هنالك حيث كان عاقداً عليها بتونس وأقام بها في كنّ بيته متمتّعا

(18) هو رجل من الجراكسة أتي إلى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الباي حسين وأدخل إلى مكتب الحرب بباردو فتعلم العربية والفقه والفرنسية والتركية والفنون العسكرية وتتلمذ لمحمود قابادو وللشيخ بيرم IV والشيخ ابن الخوجة وساهم مع خير الدين في الحركة الإصلاحية بتونس وتوفي بإيطاليا بمدينة بيرنسي في 6 ذي القعدة 27/1304 جويلية 1887 . انظر : ترجمته
Archives Gouvernement Tunisien : Coresp. Cons. Française
J. Ganiage : Les origines... p. 83.
انظر أيضا : الثريا ، عدد 3_1944 .
انظر أيضا : إتحاف : ج IV ص : 255 ، ج V ص ص : 19، 32، 42، 99 .
انظر أيضا : صفوة : ج III ص 22 . انظر أيضا : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج II ص 102 . انظر أيضا : أحوال : ص 42 . أنظر أيضا : رسائل : ص ص : 18، 23، 60، 63، 67، 79، 81، 84، 86 . انظر أيضا : الرائد التونسي : 20 ربيع الأول 4/1277 أكتوبر 1860 .

(19) سمي حسين أمير أمراء سنة 1861/1278–1862 ووزير استشارة سنة 1873/1290 ووزير العلوم والنافعة في شوال 1291/نوفمبر 1874 إلى أن أفضى الأمر عند انتصاب الحماية الفرنسوية إلى عزله من وظائفه ومن تجريده من نياشينه سنة 1881/1299 . انظر : محمد الطاهر ابن عاشور : أليس الصبح بقريب . تونس 1967 . ص : 118 .

(20) هي مدينة ليفورنيه Livourne أقام بها حسين مرة أولى سنة 1871 ومرة ثانية من سنة 1873 إلى سنة 1881 مصحوبا بكاتبه الشيخ سالم بوحاجب لتتبع ورثة القائد نسيم شمامة فيما تخلد بذمة مورثهم لفائدة الصندوق التونسي .
انظر : J. Ganiage : Les origines... p. 559.
نظر أيضا : الثريا : عدد 3 و5–1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص42 .

(21) نسيم بن بيشي شمامة الإسرائيلي ولد بتونس سنة 1805/1220 قدمه الباي رئيسا على يهود تونس في جميع ما يخصهم في ربيع الأول 1276/أكتوبر 1859 برتبة قائد وبعد أن أمن على أموال الدولة من سنة 1859/1276 إلى سنة 1864/1280 رخص له مصطفى خزنة دار بمغادرة الإيالة نهائيا دون أن يطالب بأية محاسبة في تصرفاته وتسبب عن ذلك تتبع ورثته . فأقام نسيم مدة في باريس ثم استقر بالقرنة حيث توفي في 25 ذي القعدة 24/1289 جانفي سنة 1873 . انظر :
J. Ganiage : Les origines... pp. 183-184, n° 19, 749-752
Revue Tunisienne n° 22, 1953, p. 225.
انظر أيضا : إتحاف : ج V ص 16 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3، 1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص 54 تعليق 15 وص 42 تعليق 6 .

(22) هي محبوبة بنت جنات بنت مصطفى خزنة دار . ولدت سنة 1864/1280 . انظر :
Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 182.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بثروته التونسيّة . وبقي حسين مطلوبا للبناء على البنت الثانية (23) التي عقد عليها بتونس أيضا . وقد حمّلني رسالة شفاهيّة إلى صهره (24) في الاعتذار الذي آل بعد ذلك إلى الفراق قبل التواصل (25) وكان يقول : « إنّ صهره عقله وعقل رفيقه رستم عن تزوّج بنات وليّ عهد تونس (26) قبل شيخوختهما التي تمنع من ذلك التزوّج » .

وعند دخولي للآستانة وجدت بها أولئك (27) الأعيان من أهل تونس (28) تحت ظلّ حماية السلطنة العثمانيّة . أمّا خير الدين فكان ملحوظا بمزيد الإكرام والاعتبار من شخص السلطان وإن لم يرض عنه رجال الدولة (29)

---

(23) البنت الثانية هي أم هاني أخت محبوبة ولدت سنة 1866/1283 وتزوجت بكار زروق . انظر : Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 182.

(24) هو خير الدين .

(25) سبب الفراق قبل التواصل بابنة خير الدين هو أن حسين اقترن مدة إقامته بالقرنة بفتاة إيطالية من فيرنزه هي الست أنجلينة وقد أنجبت منه ابنتها : فريدة : التي تزوجت المناضل علي باش حامبة . انظر : أحوال : ص 42 تعليق 6 .

(26) هو علي بن حسين ولد في ربيع الأول 26/1233 جانفي 1818 . ولي المملكة التونسية في 9 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882 وتوفي في 4 ربيع الأول 11/1320 جوان 1902 .
انظر : م ص . مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . تونس 1969 ص ص 12 ، 38
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... p. 98, n° 57.
انظر أيضا : E.I. l'Ed. art. Husaynides. R. Mantran

(27) في النص : أولائك .

(28) وصف الشيخ محمد السنوسي في الجزء الثاني من هذه الرحلة الحجازية ص 10 سفره من ايطاليا الى تركيا ودخوله للاستانة بقوله : « وقد كان سفري للقسطنطينية من بلد قرنة فركبت البحر يوم ثلاثين شعبان بمشايعة امير الامراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية بتونس واتباعه. وعند وصولي الى نابلي يوم رمضان تلقّاني ابراهيم باي المويحلي المصري واكتريت مع شركة المساجري. فكان الركوب في اضخم البوابير البحرية التي اختصّت بتلك الشركة لسفرها في البحور الكبرى. وسافرنا باكرة ثاني رمضان وكان الجوّ في غاية الصفو .... ودخلتها (القسطنطينية) عند الغروب من سادس شهر رمضان المعظم سنة 1299 [22 جويلية 1882] وتلقّاني في بوغازها كلّ من وكيل التوانسة سابقا الثقة التاجر الاكمل عمر رواي والماجد الاعزّ الابرع محمد الهادي بيرم مرسلا من والده لمرضه والمرعي العربي بسيّس. ونزلت في دار سكنى العلّامة النحرير الماجد الشيخ محمد بيرم .... وأقمت بها (القسطنطينية) الى يوم الاحد الثاني عشر من ذي القعدة. فككانت مدّة اقامتي بها (القسطنطينية) أكثر من شهرين تتبّعت فيها ما تيسّر لي من وجوه المطالعة . هـ »

(29) مل خير الدين من الدسائس والخزعبلات التي كان يعانيها يوميا وكلما أراد إصلاحا وجد أمامه من دأبهم المعارضة والمراوغة والمماطلة . انظر : أحوال : ص 59 تعليق 2 .

ولا عموم الأهالي لكونه دخيلا على الدولة . وقد لاقى من مضادّة الخاصّة ما لم يمكنه معه البقاء على منصبه . أخبرني الشيخ محمّد ظافر بأنّ سعايات مصطفى ابن إسماعيل في الآستانة بلغت إلى أنّ بهرام آغة (30) قال للسلطان : « إنّ خير الدين هو الذي أعطى البلاد التونسيّة لدولة فرنسا ومنحها مدّ السكّة الحديدية (31) وسهّل لها جميع الطرق وبعد خروجه لم يمكن لخلفه مصطفى ابن إسماعيل أن يرجع شيئا ممّا أسّسه خيرالدين حتى إنّ الأساطيل الفرنساوية لمّا قدمت لتونس أقامت في النفيضة (هكذا قال) التي باعها لهم خير الدين (32) » . وبسبب ذلك حرّروا فصولا في بعض تفاصيل نشروها في صحيفة الوطن المصريّة (33) وقدّموها للسلطان لدفع ما عرض عليه في شأن خير الدين يظنّون بها دفع ما أكّده المصدّقون .

وعند دخولي إلى الآستانة وجدت المحرّر سليم الشدياق (34) طبع ترجمة المحاكمة التي جرت بين قنصل فرانسا بتونس رسطان (35) وبين محرّر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(30) بهرام آغة عبد خصي اتخذه السلطان عبد الحميد الثاني باش آغة انظر : الرحلة : ج II ص 41 .

(31) انظر : .V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 204-207
V. J. Ganiage : Les origines... pp. 469-470.

(32) النفيضة : اسم هنشير كان المشير الصادق باي أعطاه لخير الدين سنة 1871/1288 عند صدور الفرمان في إثبات حق الوراثة للحسينيين على عرش تونس مع ضبط ارتباطهم بالدولة العثمانية بفضل المفاوضات التي تولاها خير الدين بالآستانة . انظر :
V. Revue Africaine : 1955, pp. 342-345.
V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 208.
انظر أيضا : أحوال : ص 61 — رسائل : ص 85

(33) جريدة أسبوعية سياسية أدبية تجارية أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة 1877 في القاهرة . انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ ... ج III ص 9 .

(34) سليم بن أحمد فارس الشدياق درس بالمكتب الحربي بباردو وانتقل إلى الآستانة معينا لأبيه في إدارة جريدة « الجوائب » وتحريرها . والملاحظ أن والده قدم لتونس باستدعاء المشير الأول أحمد باي للخدمة بالمملكة وبتلك المناسبة اعتنق الدين الإسلامي بعد أن كان على مذهب البروتستنت وصار يسمى بالشيخ أحمد فارس الشدياق . انظر : فيليب دي طراز : تاريخ ... ج I ص ص : 96—97 .

(35) تيودور رسطان Theodore Roustan ولد بايكس اين بروفانس Aix-en-Provence بفرنسا في 8 أوت سنة 1833 وتوفي في 8 أوت سنة 1906 سمي قنصلا عاما لفرنسا بتونس في 17 ديسمبر 1874 ووزيرا مقيما بتونس في 13 ماي سنة 1881 . انظر : ترجمته :
J. Ganiage : Les origines... pp. 445-446, n° 23.

« أنترانسيجان » رشفور (36) بالقلم العربي لما تضمّنته من تفاصيل أسرار الوقائع التونسيّة . وكان طبعها على (ص 50) نفقة التونسيّين بعد أن حرّرتُ عن علاّلة بن الزاي (37) في بلد إيطاليا (38) كثيراً من أسرار مخدومه مصطفى ابن إسماعيل بطلب من أمير الأمراء حسين حيث أراد منّي ذلك الغرض فحرّرته في بعض كراريس ينسبها الناس إليه (39) فرفع ستار تلك الأسرار وقد وجّهها إلى الآستانة أيضا .

وعلى كلّ حال فإنّ السلطان لم يضع من جانب خير الدين وأغضى عنه

---

(36) جرت هذه المحاكمة بباريس ودامت ثلاثة أيام : 13—14—15 ديسمبر سنة 1881 . انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 685-693, le procès de l' « Intransigeant ».
انظر أيضا : الرحلة : ج II ص : 43 .

(37) كان معينا لمصطفى بن إسماعيل وكانت له سطوة نادرة على قلبه ويعد من أهم عناصر الفساد بالقصر الملكي . وقد استعمله القنصل رسطان في التجسس على ابن إسماعيل وعلى الباي محمد الصادق وكان له نفوذ عظيم عليهما بلغ درجة سمحت لجريدة « مستقبل صردانيا » أن تنعته بلقب : « كاهية الوزير الأكبر » وكان علالة ترقى إلى رتبة : « آلاي أمين » بمقتضى أمر مؤرخ في 18 جوان 1879 إلا أنه بعد ذلك بقليل جرد من رتبته العسكرية ونفي إلى جزيرة جربة مع سجنه ببرج المكان وذلك إثر نازلته مع الشيخ محمد الطاهر النيفر القاضي المالكي .
انظر : أحوال : ص ص : 49—50، 53 .
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 480, 559 et 561.

(38) أقام الشيخ محمد السنوسي بإيطاليا من يوم السبت 10 رجب 1299/28 ماي 1882 (انظر : الرحلة. ج I ص 28) إلى يوم الثاني من رمضان 1299/18 جويلية 1882 (انظر : الرحلة . ج II ص 10) فكانت مدة الإقامة شهرا وثلاثة أسابيع .

(39) لعلها المخطوطة الموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس مجهولة المؤلف تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 (أوراق 31— مسطرة 16 — مقياس 3،22×6،16) . تبتدىء هذه المخطوطة هكذا : و : 1 ب « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . الحمد لله . هاته نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل وما جرى في أيام تعلقه بالدولة الصادقية من التقلبات والحوادث المؤلمة التي كانت نتيجتها احتلال الفرنسيس لهاته الديار التونسية واستيلاؤهم على زمام إدارتها والضرب على أيدي ولاة أمورها من التصرف في أمورها واستعباد أهلها وإرسال سهام الاستبداد والذل على أهلها والله عليم بما يعملون » . ويلي هذا الاستهلال ثلاثة فصول : 1=في منشأ مصطفى بن إسماعيل . 2= في بعض أعماله مع مخدومة . 3= في سبب دخول الفرنسيس لتونس . ثم يلي هذه الفصول فصل رابع يحتوي على تقرير من علالة بن الزاي في خدمته الحقيقية مع دولة فرانسا منقول من خطه وبوسطه ذكر مقتل العادل باي ومقتل الطاهر باي . وتنتهي المخطوطة بما يلي : و31 أ : « انتهى ما وجد من هاته النبذة التاريخية والتقرير الذي سطره علالة بن الزاي في تسطير خدمته مع دولة فرانسا وهو لعمرو الحق من الخائنين لبلاده وخالقه وقد جوزي في آخر مدته على مقتضى ما يستحقه وما ربك بظلام للعبيد » . وقد حققنا هذه الوثيقة وهي تحت الطبع

وهو منه في احتراس حتّى لم يسمح له بالتداوي في بلد أوربا تخوّفا من خروجه وأعانه على إحضار من شاء من الأطبّاء وأخبار ولاياته وتصرّفاته غير شاذّة عن الدواوين (40) .

وقد اجتمعت به هنالك عدّة اجتماعات فصرّح لي في بعضها بغاية ما كان عنده من الكدر من حيث أنّه عند مفارقته لمنصب الوزارة الكبرى (41) رأى جميع خاصّته وخاصّة الدولة وأعيان الأهالي تسارعوا لبستان مصطفى بن إسماعيل (42) لكون الصادق باشا (43) أولاه وزيراً مباشرا (44) بإعطاء خطّة الوزارة الكبرى لأمير الأمراء مَحمّد خزنة دار (45) وقال لي : « إنّ ذهاب أولئك الأعيان لتهنئة مصطفى بن إسماعيل إغراء للباي على إعطائه خطّة الوزارة الكبرى بعد حين . ولو أنّهم تركوه ولم يذهبوا له بالمرّة لما تجاسر الباي بعد ذلك على ترقيته لخطة الوزارة الكبرى (46) » . فقلت له : « لا يخفى على سيادتكم أنّكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا وما يخشاه الأعيان والمتوظّفون

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(40) الدواوين : الشرطة السرية لعبد الحميد .

(41) في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(42) خير الدين يعرض بالشيخ محمد السنوسي الذي نظم قصيدا نشر في الرائد في مدح مصطفى بن إسماعيل .

(43) ولد في 5 صفر 7/1228 فيفري 1813 وولي في 23 صفر 22/1276 سبتمبر 1859 وتوفي في 15 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882 إتحاف : ج 5 . انظر أيضا : م. ص. مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . ص ص 11، 34–38 .
انظر أيضا : E.I. 2ème Ed. art. Husaynides. R. Mantran
J. Ganiage : Les origines.. pp. 89-97, 121-124.

(44) في رجب 1294/جويلية 1877 . انظر : J. Ganiage : Les origines.. p. 476.

(45) محمد خزنة دار مملوك أصله يوناني ولد حوالي سنة 1810/1225 بجزيرة كوس Cos . ترعرع بين مماليك حسين باشا باي وارتقى إلى خطة خازن مال شاكير صاحب الطابع ثم ولي عاملا بسوسة والمنستير سنة 1838/1254 . وسمي وزيرا للداخلية في جمادى الاولى 1278/نوفمبر 1861 ووزير الحرب في رجب 1279/ديسمبر 1862 ثم وزيرا للداخلية في ربيع الثاني 1282/سبتمبر 1865 ثم وزيرا أكبر في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 واستعفى من منصبه في 25 شعبان 24/1295 أوت 1878 ثم سمي مرة ثانية وزيرا أكبر في 17 شوال 12/1298 سبتمبر 1881 واستعفى لكبر سنه في سنة 1883/1300 وتوفي بالمرسى في 23 شوال 22/1306 جوان 1889 . انظر : ترجمته : J. Ganiage : Les origines.. p. 82.
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 203.

(46) في 24 أوت 1878 .

وخاصّة رجال الدولة من ملوك الإطلاق قاض عليهم بتهنئة كلّ مسؤول إظهاراً للرضى الذي لم يكن الملك متوقّفا (47) عليه . ولو أنّ سيادتكم قيّدتم الدولة بمجلس شوري (48) مدّة وزارتكم الكبرى ما أمكن استبداد الملك بما حصل ولا اضطرّ الأهالي لما كان منهم » . وهنا نذكر أنّ هذا الوزير قد أمكنه أن جمع إليه في مبدإ أمره خاصّة من عقلاء الرجال بتونس (واستعمال مصطفى بن إسماعيل المقرّب عند الباي بترقيات وعطايا ووعود) (49) وبذلك السلم ارتقى إلى خطّة الوزارة الكبرى بتونس بعد إسقاط صهره ووليّ ترقيته مصطفى (ص 51) خزنة دار (50) ولكن (51) بشهادة الله أنّه تعاطى التصرّف في الوزارة بطريقة جدّية سلك بها مسلك التنظيمات (52) فنفع البلاد ودفع

---

(47) في النص : متوقف .

(48) كانت المحاولة الأولى لإحداث مجلس شوري بالبلاد التونسية فاشلة وحاصل الأمر أن المشير محمد الصادق باي ألزم إتماما لقانون عهد الأمان بتكوين مجلس شوري سمي بالمجلس الأكبر تركب من ستين عضوا : عشرون من رجال الدولة وأربعون من أعيان الحاضرة . وافتتح محمد الصادق باي الجلسة الأولى لهذا المجلس في 24 أفريل 1861 . وقد جسمت هذه المؤسسة استبداد المماليك بالسلطة دون الباي فبادر إلى إبطالها في 30 أفريل سنة 1864 ، بمناسبة ثورة علي بن غداهم . انظر : إتحاف : ج V ص ص 33–38 .

انظر أيضا : Revue Tunisienne, 1939, p. 70 ; 1935, p. 220.

J. Ganiage : Les origines... pp. 76-88.

Fitoussi-Bénazet : L'Etat tunisien et le protectorat français, pp. 52-117.

(49) زيادة في الطرة بخط المؤلف .

(50) مصطفى خزنة دار مملوك أصله يوناني واسمه الحقيقي : جورج كلكياس سترافلكيس : Georges Kalhias Stravelakis ولد بجزيرة شيو Chio في سنة 1817 . قدم تونس صغير السن فأدخل دين الإسلام وسمي مصطفى وترعرع في سراية حسين باي مع تربه الأمير أحمد الذي سماه ، عندما ولي العرش الحسيني سنة 1837 خزنة دار مكان شاكير ثم زوجه أخته كلثوم . وهكذا أصبح مصطفى صهرا لحاكم البلاد ووزيرا في الدولة وسنه دون الخامسة والعشرين . وتوفي في 26 جويلية سنة 1878 . أما بخصوص التهمة الموجهة ضد خير الدين بكونه أسقط مصطفى خزنة دار من الوزارة الكبرى فتجدر الملاحظة أن خير الدين دفعها عن نفسه سواء عن طريق أعضاده ومن بينهم أمير الأمراء حسين أو بنفسه . انظر : Revue Tunisienne n° 22, 1935, p. 230.

انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 89-98, 179-195, 202-217, 279-321, 422-443.

(51) في النص كذا : لاكن .

(52) انظر : إتحاف. ج V ص58. انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 371-374.

مها كثيراً من غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار (52 مكرر) . وتلك سنّة في المتوظّفين يسلك المتولّي منهم ضدّ ما كان عليه المتخلّي ممّا كان سبباً للانتقاد على المتخلّي سيّما وقد صادف ذلك من هذا الوزير أمرين مهمّين : **أحدهما** بلوغه في الثروة من وزارة سلفه إلى المبلغ الذي أقنعه عن مزيد التطلّب لما في يد غيره فجمع ليده الخاصّة أعزّ أملاك الدولة ونتائج بصاهرته لمصطفى خزنة دار ودخل للدولة عند انتصاب الكومسيون (53) بعد تأخّره في بيته مدّة (54) فكان تصرّفه بمشاركة الأعضاء الأجانب الذين يحرسون المال لحقوق أرباب الديون (55) وفي مجموع ذلك مقتض للعفّة ومانع من غيرها . **والأمر الثاني** : هو أنّه وإن لم يتعلّم العلوم والسياسة بالطرق

(52 مكرر) نتصور مقدار غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار من مطالعة هذه الرسالة فقد كتب أنطوان كونتي إلى خير الدين بالآستانة رسالة بتاريخ 24 ديسمبر 1878 جاء فيها ما يلي : «رجعنا في السياسة الداخلية إلى ما كنا عليه في عهد المرحوم سيدي مصطفى من ضرب الفرايض والغرامات على أفراد الناس من أهل الساحل والعروش وبيع المناصب والخطط فشيء يأخذه العمال وآخر يأخذه غيرهم وصار يقع ذلك من غير تحاش حتى أن الكومسيون المالي جعل جريدة في أسماء الأنفار الذين أصيبوا بذلك وفي عزم الناظر المالي أن يجمع القناصل الثلاثة ويتفاوض معهم في ذلك» . انظر : أحوال : ص : 35 . انظر أيضا :
J. Ganiage : Les origines... pp. 319-334.

(53) كان انتصاب الكومسيون في 5 جويلية 1869 . يقول أحمد بن أبي الضياف : «وتكلم القناصل مع الباي في ذلك ثم أتاه قنصل الفرنسيس وهو الفيكنت دي بوتمليو Vicomte de Botmiliau لما اضطره بنو جنسه وقال له «إن مصرفكم فيما لا يعني أكثر من الكثير ويجب اعتبار حال الغرماء لأنهم دفعوا أموالهم ولابد لتدبير ذلك من كومسيون» أي مجلس مختلط ... فوافقه الباي على ذلك سرا» . انظر : إتحاف : ج V ص114 وفي ص 118 من ج V إتحاف يواصل ابن أبي الضياف كلامه على الكومسيون فيقول : «ظهر لمولانا ... أن يفوض إدارة المال إلى كومسيون مالي تحت رئاسة أمير الأمراء الوزير السيد خير الدين منقسم إلى قسمين : أولهما مركب من عضوين تونسيين وثالث فرانساوي عارف بأحوال المال تستدعيه حضرته العلية من الدولة الفرانساوية وسمي هذا القسم قسم العمل ... والثاني يتركب من ستة أعضاء اثنان فرنساويان واثنان انقليزيان واثنان طليانيان تقدمهم أرباب الديون المذكورة للمناضلة عن حقوقهم ... ويسمى هذا القسم قسم النظر والتصحيح» . انظر أيضا :
J. Ganiage : Les origines... pp. 335-402 ;
Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 191 ; n° 22, 1935, pp. 214, 228.

(54) كان ذلك من ديسمبر سنة 1862 إلى جويلية 1869 .

(55) انظر : J.Ganiage : Les origines... pp. 288-298.

المدرسيّة (56) إلاّ أنّه فيه همّة دعته للتشوّف إلى المعارف والسياسات وأعانه على ذلك سفره لباريس (57) لعمل الحساب مع محمود بن

---

(56) يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور في أركان النهضة الأدبية بتونس ص 12 : « فألقته (خير الدين) يد الأقدار إلى مبعوث من طرف باي تونس (أحمد باي) ينتقي له مماليك ويطلب خاصة شابا مهذبا متعلما يحسن اللغة الفرنسية فكان خير الدين هو الشاب المطلوب . ودخل تونس (خير الدين) سنة 1838/1255 في أول عهد المشير الأول أحمد باشا الحسيني فجعله المشرف على إنشاء المدرسة الحربية والواسطة بينه وبين المسيرين لها من الأساتذة الأوروبيين » ويقول : J. Ganiage في كتابه : « ...Les origines » ص 371 : « إن خير الدين رجل لا ثقافة له أصلا إذ كان أميا كسائر مماليك قصر باردو غير أنه كان يفهم اللغة التركية وبفضل إقاماته الطويلية بفرنسا أجاد إتقان اللغة الفرنسية فقد درس في باريس النظام السياسي للدول الغربية » .

ويقول خير الدين متحدثا عن أصله ونشأته في مذكراته (انظر : Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 183) « وربيت أولا بالقصر (قصر باردو) فدرست به اللغة العربية والعلوم الإسلامية ثم دخلت إلى الجيش حيث تلقنت معارفي العسكرية بإدارة لجنة من الضباط أوفدتهم فرنسا لتنظيم عساكر الباي وتعليمهم » . أما نحن فلم نجد في خزينة الحكومة التونسية بين الوثائق الخاصة بالمكتب الحربي بباردو ما يدعم القول بأن خير الدين كان يحسن الفرنسية قبل قدومه إلى تونس كما لم نعثر على ما يؤيد أنه أشرف على إنشاء المكتب الحربي ... الخ منذ قدومه فهذا الإشراف لم يقع إلا بعد ارتقاء خير الدين إلى رتبة أمير لواء الخيالة سنة 1841/1258 وهو إشراف لا بمعنى الإدارة إذ المكتب الحربي في تلك الفترة كان يديره كالليقاريس Calligaris وهو ما يؤيده قول خير الدين في مذكراته . وأما قول جان قانياج J. Ganiage بأنه أمي أصلا فمردود والصواب ما قاله الشيخ محمد السنوسي من أن خير الدين لم يتعلم بالطرق المدرسية وإنما حصلت له مشاركة في العلوم عرف بها طريق الاستعانة على كل صناعة بصالح أهلها . انظر : المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر 1968 ، ص : 11 .

(57) كان السبب في سفر خير الدين لفرنسا (سنة 1853) أن الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العلية ودولة الموسكو رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت . والعادة أن الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية إذا كان لها حرب ولم يكن له من اليسر ما يوفي بهمته فبعث خير الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا وكتب له تفويضا بيده ولم يعارض في ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنة دار . (أنظر : إتحاف . ج IV ص : 156) . ولما علم (أحمد باي) أن النازلة (نازلة محمود بن عياد) آلت إلى جدل وخصام ... أتى الأمر من بابه ... فكاتب أمير لواء الخيالة أبا محمد خير الدين وهو إذاك بباريس وآذنه بمباشرة النازلة ... ودامت النازلة نحو ثلاث سنين آل الأمر فيها إلى ما لخصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية . (انظر : إتحاف : ج IV ص : 154) . وفي هذا الصدد أرسل المشير أحمد باي رسالة إلى وزير خارجية فرنسا هذا نصها : « الحمد لله نخبة الوزراء الأركان وعمدة أكمل الرفعة والشان ومن اشتمل على الوفاء بالعمل واللسان وصاحب المحاسن التي لا يحصيها الحسبان فريدة الكبراء وفخر سلك الوزراء حبيبنا السيد دورวان دو لويس وزير الأمور الخارجية في الدولة العظمى الفرنساوية أدام الله حفظه وأجزل من العز حظه أما بعد إهداء التحية المناسبة لوزارتكم السنية فإن مطالبنا من محمود ابن عياد التي كاتبنا جنابكم الأعز فيها قبل هذا مع مكتوبنا للجناب المعظم السلطاني وانتظرنا عدله في النازلة المباشر فيها أمير الأمراء ووزيرنا في الأمور البرانية الكنت ابننا جوزاب راف وكنا أمرنا الأعز الأرشد ابننا خير الدين أمير لواء الخيالة أن يباشر النازلة معه بحيث تكون يدهما واحدة وتأخر إعلام جنابكم بذلك والان نعرض لعزيز جنابكم أن يدهما في هذه الخدمة واحدة والحاضر منهما يقوم مقام

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عيّاد (58) على عهد المشير الأوّل أحمد باشا باي . (59) فأقام بها مدّة (60) وتعرّف بالأعيان وشاهد ما عليه الرجال فانتشر بذلك في رياض المطالعات واستعان عليها بمن اختارهم . وسار على ذلك المنهج بعد رجوعه من سفره حتّى حصلت له مشاركة عرف بها طريق الاستعانة على كلّ صناعة بصالح أهلها . وقد كان الوزير مصطفى خزنة دار يقول : « إنّ خير الدين وحسين ورستم مجموعهم رجل واحد لأنّ خير الدين يقدر على العمل إذا وجد حُسْن التدبير من غيره وليس له قدرة على التدبير، وحُسَيْنا يقدر على التدبير ولا قدرة له على العمل، ورستماً رجل أمين فمجموعهم بمثابة رجل واحد مدبّر عامل أمين ومن انفرد منهم لا يمكن له أن يستقلّ بفضيلته » .

ومن أحاسن عمل خير الدين أنه في مدّة (ص 52) تأخّره عن الخدمة (61)

الغائب فيما يتعلق بطلب حقنا الذي رجونا جنابكم في ذلك . ودمتم ودام لكم الإنعام على ممر الدوام . حرره الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في 15 ربيع الأول سنة 5/1271 ديسمبر 1854

(انظر : A.E. Paris, correspondance politique, Drouyn de Lhüys, juillet 1852 - avril 1955.

(58) محمود بن محمد بن عياد ولد بتونس حوالي سنة 1810 وتوفي بالآستانة في 18 فيفريّ سنة 1880 . انظر : ج IV ص ص 151–155–156 . انظر أيضا :

Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 184-186.

J. Ganiage : Les origines... pp 181-185, 750.

انظر أيضا : رسالة الجنرال حسين : حسم الالداد في نازلة ابن عياد . المطبعة التونسية . 1876/1292 .

(59) مولد هذا الباي في الحادي والعشرين من رمضان سنة 2/1221 ديسمبر 1806 وامه جارية من سبي سنبيرة (St Prietro جزيرة في الجنوب الغربي من سردانيا) جاءت صغيرة مع أمها وأختها وتربت بدار جدته لأبيه . بويع أحمد ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 10/1253 أكتوبر 1837 وتوفي في 13 رمضان سنة 30/1271 ماي 1855 . انظر : إتحاف : ج IV ص ص : 188–265 . انظر أيضا : الوراثة : ص ص : 31–32–33 . انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp.10, 112-122

(60) من سنة 1853 إلى موفى سنة 1856 .

(61) استقال خير الدين في ديسمبر سنة 1862 من منصبيه كوزير للبحر ورئيس للمجلس الأكبر وبقي متوقفا عن الخدمة إلى أن عيز رئيسا للجنة المراقبة المالية الدولية في 5 جويلية سنة 1869 . انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 81-371 والملاحظ أن مدة التوقف عن الخدمة هي سبع سنوات لا تسع كما جاء في (R.T. n° 18, 1934, p. 187) .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

جمع زروعه في كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (62) بمشاركة أعيان من علماء تونس (63) فجاء كتابا مفيدا حصل له بطبعه صيت في السياسة فأمكن له أن يكون رئيس الكومسيون المالي عند انتصابه وزيراً مباشراً بحسب ما اقتضته تلك الظروف (64). وبعد انفصاله من وزارة تونس (65) وسعاية الشيخ محمّد ظافر له في الانتقال إلى الآستانة كان أوّل تلغراف (66) ورد لتونس تضمّن أنّ الحضرة السلطانيّة رأت بعض فصول من كتاب أقوم المسالك واستحسنتها فأمرت بإحضار مؤلّفه. فكان هذا الكتاب هو باب الدخول إلى وزارتي تونس والآستانة (67). ولكنّه بعد أن استقرّ في خطّة الوزارة الكبرى بتونس ببضع سنين تنكّر لمن كانوا في إعانته ممّن يسند إليهم التدبير وأخذ بيده زمام الإطلاق في الدولة ورشقته سهام الاعتراض وفسدت أنصاره ونقموا عليه أموراً كثيرة من أعظمها مخالفته في العمل لواجبات الشورى التي كانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(62) كان الفراغ من طبعه بتصحيح محمد البشير التواتي بمطبعة الدولة التونسية في 18 ربيع الثاني سنة 1868/1285 (انظر : أقوم المسالك : ص 464) وظهر هذا الكتاب بالفرنسية بالعنوان التالي :

Réformes nécessaires aux Etats Musulmans. Essai formant la première partie de l'ouvrage politique et statistique intitulé : « La plus sûre direction pour connaître l'état des nations », par le Général Khérédine, Ministre de la Marine à Tunis et ancien Président du Grand Conseil Tunisien. Traduit de l'arabe sous la direction de l'auteur. Paris, Imprimerie administrative de Paul Dupont, 45. rue de Grenelle, Saint-Honoré, 1868.

انظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 187.

(63) من بين هؤلاء الأعيان الشيخ سالم بوحاجب المولود بقرية بنبلة من قرى المنستير سنة 1244/1828 والمتوفي بتونس في ذي الحجة سنة 1925/1343 درس بجامع الزيتونة الأعظم وجلس به مدرسا من الطبقة العليا من مدرسي المالكية من 1265 إلى 1330. وعند تأسيس المجلس البلدي في المحرم من سنة 1858/1275 انتخب ليعمل به كاتبا وهنالك تعرف بحسين ومنه تعرف بخير الدين فأصبح لكل منهما صديقا. وتولى إعانة خير الدين على تحرير كتاب أقوم المسالك كما صرح بذلك في خاتمته إذ قال : « مستعينا في تحريره ببعض أبناء الوطن ». انظر : الثريا : عدد 5 ص ص : 2–3.

(64) سمي خير الدين وزيرا مباشرا في شوال 1286/جانفي سنة 1870.

(65) انفصل خير الدين عن الوزارة الكبرى في 11 رجب 1294/22 جويلية سنة 1877.

(66) انظر خبر هذه البرقية في : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 213.

(67) سمي خير الدين وزيرا أكبر بتونس في 29 شعبان 1290/22 أكتوبر سنة 1873 وسمي صدرا أعظم بالآستانة في ذي الحجة 1295/أوائل ديسمبر سنة 1878.

من زهرات كتابه أقوم المسالك . وقد أوقفني صهره وناصره أمير الأمراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية على مكتوب كاتبه به من إيطاليا (68) أنّب عليه فيه غاية التأنيب لتركه واجبات الشورى واستبداده بالتوغّل في سكر الولاية . وقال لي في أحد مجالسه : «لا تكون نتيجة سيرة خير الدين إلاّ تسهيل الطريق لوزارة مصطفى بن إسماعيل حيث إنّ نفور الباي من خير الدين قاومه أوّلا معاضدة وليّ العهد (69) وخاصّة رجال الدولة لخير الدين ولكن بنفور هؤلاء لا يبقى إلاّ انتظار وزارة مصطفى بن إسماعيل . » ولكن قد سبق القضاء فتمادى خير الدين على استبداده وانحلّت جموع أنصاره وربّما وجدت لبعضهم يد سريّة (70) مع مصطفى ابن إسماعيل انتهز منهم فرصتها . وهنا لابدّ من صيانة (ص 53) بعض الأعراض ممّا يقتضيه نشر بساط الاعتراض .

وكنت في ذلك الوقت محرّرا للرائد التونسي (71) فكتبت فصلا افتتاحيّاً جعلتُ عنوانه « لا قول إلاّ بعمل » ، وتكلّمت فيه على الموضوع بكلام عموميّ تمعّر له وأنكر الكلام في ذلك الموضوع . وصرّح لي مرّة بقوله : « إنّي كتبت أقوم المسالك قبل مباشرتي للخطّة وعندما باشرتها رأيت واجباتها قاضية بغير ذلك » . هذه نهاية ما سمعت منه في الاعتذار عن مخالفته لرأيه في الشورى . ولم يقع نشر ذلك الفصل بالصحيفة . ولكنّه اضطرّ للخروج من خطّة الوزارة

(68) انصرف الوزير حسين إلى نازلة القائد نسيم شمامة منذ أن فوض أمرها إليه في ربيع الثاني 1290/جوان 1873 ولم يزل مهتما بها حتّى دعاه تشعب النازلة والخطر الذي أحدق بمصالح الدولة بها إلى الانقطاع للاشتغال بها بإيطاليا وقد أقام في مدينة القرنة Livourne من سنة 1873 إلى سنة 1881 مترددا في تلك المدة على تونس مرات لم يطل فيها مقامه . انظر : الثريا : عدد 3 .

(69) ولي العهد إذاك هو علي باي المولود سنة 26/1234 جانفي سنة 1818 . ولي في 26 ذي الحجة 28/1300 أكتوبر سنة 1882 وتوفي في 4 ربيع الأول 11/1320 جوان سنة 1902 . وكانت ولاية علي باي هي الأولى بعد الاعتراف الرسمي بالوراثة في البيت الحسيني ولكن بانتصاب الحماية الفرنسية انقطع اسناد المراتب الشرفية التركية للبايات . انظر : الوراثة : ص ص : 12–38–39 . انظر أيضا : E.I. 2ème éd. Husaynides. R. Mantran.

(70) انظر المخطوطة التي نسبناها لمحمد السنوسي والموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 .

(71) اشتغل محمد السنوسي محررا للرائد التونسي من 5 شعبان 26/1293 اوت 1876 إلى 5 رجب 3/1298 جوان 1881 .

بطلب من الباي بعد ثلاثة أسابيع من حديث ذلك الفصل (72) ولذلك أثبته في كتابي « غرر الفرائد بمحاسن الرائد » وإن لم يقع نشره في الصحيفة (73) . ومن هذا التفصيل يعلم المطالع معنى قولي له في الآستانة « إنكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا » . ولكنّه أجابني في الآستانة بغير جوابه في تونس فقال لي : « هذه إحدى المسائل الّتي يعترضون عليّ بها مع أني قد سعيت مع الباي في إقامة مجلس شوري ونقلت له عن الأعيان أنّهم يطلبون ذلك . فقال لي الباي : « نطلب أن تسمّي لي هؤلاء الطالبين » ففسخت المجلس وأرسلت لكلّ من شيخ الإسلام (74) والقاضي المالكي (75) لكونهما أكثر الفقهاء تبصّرا بأحوال العصر . واجتمعت مع كلّ واحد منهما بانفراده وتكلّمت معه في المسألة فكان جوابهما يدور على محور واحد وحاصله أنّ هذا الأمر لا يرضي الباي ولا يقوم لك به أصحابك ولا يعرف الأهالي له قيمة ولا يطلبونه » . قال لي خير الدين : « ثمّ إني سألت الذين طلبوا ذلك منّي من أصحابي عمّن يقوم بوظيفة المجلس من الأهالي . فكنت كلّما سألت واحداً ذكر لي بقيّة أصحابي وانحصرت دائرة الأمر فيما بيننا مع كون الباي غير راض بذلك (ص 54) فتركت الخوض في المسألة بعد ذلك . ولا شكّ عندي أنّ الاستبداد مع الصدق والنصيحة أنفع من المشاركة في الرأي إذا أفضى للتشتّت » . وعند ذلك قلت له : « أمّا الاستبداد بشرط الصدق والنصيحة فلا يخفى أنّه غير مضمون الدوام ، إمّا بتغيّر فكر الشخص أو بتغييره بغيره ، وأمّا كون الأهالي غير طالبين والباي غير راض فلا يخفى أنّ هاته التغييرات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(72) جرى حديث ذلك الفصل بين خير الدين ومحمد السنوسي في 19 جمادى الثانية 1294/غرة جويليا 1877 .

(73) لم نعثر لهذا الكتاب على أثر لا بدار الكتب الوطنية ولا بغيرها .

(74) عند وفاة الشيخ محمد معاوية أسندت مشيخة الإسلام إلى الشيخ أحمد ابن الخوجة في 27 صفر 13/1294 مارس1877 . انظر : الثريا : عدد 8 . ص 9 .

(75) هو الشيخ محمد الطاهر النيفر : ولد عام 1824/1240 وتوفي بتونس عام1311/1894. والملاحظ أن خير الدين هو الذي عينه قاضيا مالكيا في سنة 1873/1290 . انظر : الثريا : عدد 10 . ص 2 .

الدولية تارة تكون من الأدنى للأعلى فيثُور الأهالي إلى أن يحصلوا على انقلاب الدولة وذلك عند استضعاف الدولة وفوز الأهالي بالقوّة الكافية وتارة يكون من الأعلى للأدنى فتحمل الدولة أهاليها على ما فيه صلاح ملكهم وتدخل فيهم ذلك النظام شيئا فشيئا إلى أن يصير جبلّة فيهم ، وهذا تارة يكون بنصح الملوك للأمّة حفظا لقوّة الشوكة كما فعله السلطان سليم (76) في أخبار تنظيماته (77) وتارة يكون باستسلام الملك حين يرى من نفسه ضعفا في وجه غيره فيضطرّه ذلك إلى هذا النوع من التسليم وإلاّ فإنّ تنازل الشخص الواحد عن استبداده بالأمر من عند نفسه لا أظنّ أنّ النفس تقبله بسهولة وقد أفادنا التاريخ وجود هاته الأصناف بأسبابها في دول كثيرة . وكان الأمل من وزارتكم أن تكون الدولة من الصنف الثاني لما تقتضيه حالة جهل أغلب الأهالِـي » . ثمّ أرخيت له العنان وجريت معه بحسب جريه في ذلك الميدان .

وقد أظهرت له في إحدى الليالي تعجّبي من قبوله لخطّة الصدارة بعد ولايته رئاسة مجلس الشورى (78) حيث إنّ تلك الرئاسة من الوظائف

---

(76) هو السلطان سليم الثالث ولي الخلافة العثمانية من سنة 1789 إلى سنة 1807 . وفي عهده تمت أولى محاولات الإصلاح على غرار الإصلاح الفرنسي :
(1) دائرة المعارف الإسلامية ط1 . (E.I., 1) مجلد IV 227–231 (مقال J. H. Kramers)
(2) C. Brockelmann : Histoire des peuples et des Etats islamiques, Paris, 1949, pp. 290-291.

(77) هي الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات وقد اتخذها السلطان سليم الثالث على مثال تنظيمات المؤسسات الفرنسية إذ نصحه باتباعها سفير نابليون الأول بتركيا الجنرال سبستيان Sebastiani . والملاحظ أن الديبلوماسية الفرنسية كان لها تأثير بالغ في بلاط هذا السلطان . وكان في عداد هذه التنظيمات تنظيم الجيش إلا أن العساكر الإنكشارية لم يرضوها فدبروا مؤامرة ضد السلطان سليم فأجبر على التنازل عن الخلافة العثمانية في 29 ماي 1807 ونفذ فيه حكم الإعدام في عام 1808 . انظر : دائرة المعارف الإسلامية ط 1 (E.I., 1) مجلد IV 689–693 (مقال J. H. Kramers) .

(78) مجلس الشوري هو لجنة خاصة متركبة من عضوين انجليزيين وعضوين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة هذا المجلس تقديم تقرير بخصوص إعادة النظام المالي العثماني . وقد أسندت رئاسة هذا المجلس إلى خير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذي الحجة سنة 1878/1295 . والملاحظ أن خير الدين عين صدرا أعظم بالآستانة في 28 ذي القعدة 4/1294 ديسمبر 1878 . انظر :
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 216.

الاستمراريّة وصعوبة الصدارة في البلاد العثمانيـة لاسيّما على الدخيل لا تقتضي استمراراً . كما أني أظهرت له تعجّبي من إقامته وإقامة غيره من التونسيّين هنالك تحت ضغط الاحتراس من (ص 55) ترصّد الجواسيس (79) . فصدّق تعجّبي من كلا الأمرين وقال لي : « أمّا قبول الصدارة فالحقّ فيه ما تقول ولكنّني (80) قبلتها حيث إنّ الصادق باي يعتقد أنّ من يخرج من بلاده يموت جوعا فأردت أن أريه أنّ من يخرج من بلاده يصير صدراً أعظم (81) في مقام السلطنة العثمانية وأنا على يقين من عدم استمراري على تلك الخطّة ولذلك بعد خروجي منها عُرضت عليّ مراراً ولم تزل الحضرة السلطانيّة تطلب إعـادتي لها وأنا على رأيي الأوّل في عدم العودة . وأمّا الإقامة فـي الآستانة على الحالة الموجودة فإني قبل دخولي للآستانة ما كنت أحسب شيئا ممّا هو موجود ولو أنّ إمامي الأعظم أبا حنيفة (82) أخبرني بشيء ممّا وجدت عليه بلاد الترك كنت أقول إنّ الإمام رضه عارف بأمر الدين وربّما شذّت عنه أمور الدنيا . وما كنت أتصوّر وجود هاته الحـالة في مقرّ السلطنة الإسلاميّة ولكن بعد وجودي في هاته البلاد وجب البقاء على هاته الحال . وأنا لا أدري كيف المآل » (82 مكرر) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(79) كان للسلطان عبد الحميد الثاني مصلحة للجوسسة تحدث عنها الشيخ محمد السنوسي في الجزء الثاني من الرحلة الحجازية (ص ص 40–41) فقال : « وبمقدار ما أمكنه (السلطان عبد الحميد) من قصر وجوه التفرقات على نفسه كان يتوجس خيفة من غدر القادرين ومكر الماكرين ولذلك اتخذ من أوجه الاحتراس وتنظيم حرس الجواسيس ما قام به بواجبات حفظ نفسه ... دخلت لصلاة الجمعة بجامع الحميدية لمشاهدة موكب حضور السلطان للصلاة ... ويدخل حرس الياورات للجامع فيحيطون بجميع جوانبه ويدخل السلطان في لمة وزرائه متدرعا بإحاطتهم به وكنت عند دخولي للجامع أخذت معي مرآة هند صغرى ليمكن لي بها النظر في أخريات ذلك الميدان فوضعتها بجيبي وبسبب ذلك بمجرد وقوفي داخل الجامع لأداء تحية المسجد عالجني أحد الياورات ووضع يده على جيبي وطلب مني استخراج ما أوجس منه خيفة ولكن كان ذلك منه بظرف تركي فعلمت عذر الرجل ورأيت لنفسي الذنب في عدم أخذ تلك المرآة بيدي لتكون بادية حالة دخولي الجامع بحضرة السلطان وأنا رجل غريب بحسب لباسي التونسي فأخرجت له المرآة وناولته إياها فنظرها وأرجعها لي وذهب في حال سبيله » .

(80) في النص كذا : ولد كني .

(81) في النص كذا : أعظما .

(82) توفي أبو حنيفة ببغداد سنة 767/150 .

(82 مكرر) في النص كذا : المثال .

وقد سمعت ما يقرب من جوابه من بقيّة الذين ساقتهم المقادير إلى بلاد خلافة الإسلام واضطرّهم اضطراب الأهواء العصريّة إلى ذلك المركز وبذلك ازددت حبّا في بلادي وصرت أنشد في قومي (من البسيط) :

وما أصَاحِبُ من قَوْمٍ فَأَذْكُرُهُمْ إلاّ يَزِيدُهُمْ حُبًّا إلَيَّ هَمُ

وقد اكتريت لسفري من الآستانة صحبة فابور نمساويّ إلى جدّه . وأمكن السفر من الآستانة عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة (83) وصاحبني للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد بيرم (84) وابنه الأعزّ محمد الهادي (85) وأتباعه . وأدركنا هنالك للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد ظافر وصهره الخير عبد الرحمان (ص 56) الجزولي (86) . وكان الفابور محتبكا بركاب الحجاج من أهل فارس وبعض الترك الذين تعرّفت بأعيانهم وطابت لي مرافقتهم .

وقبل خروجي من الآستانة كتبت إلى أصفى أودّائي (87) مكتوبا يشف عمّا يكنّه الفؤاد ونصّه :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(83) يلاحظ أن الشيخ محمد السنوسي يذكر هنا أن خروجه من الآستانة كان عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة 1299/24 سبتمبر 1882 بينما ذكر في الصفحة 10 من هذا الجزء الثاني من الرحلة أن خروجه من الآستانة كان يوم الأحد الثاني عشر من ذي القعدة . ولعل مراده أن المشايعة كانت عشية يوم السبت وأن إقلاع الباخرة كان صباح يوم الأحد . ويلاحظ أيضا أن إقامة الشيخ محمد السنوسي بالآستانة دامت من 6 رمضان 1299/8 جويلية 1882 إلى 11 ذي القعدة 1299/24 سبتمبر 1882 .

(84) يلاحظ أن الشيخ محمد بيرم الخامس أقام بالآستانة إقامة أولى من صفر 1297/جانفي 1879 إلى شعبان 1298/جوان 1881 وإقامة ثانية من المحرم 1299/نوفمبر 1881 إلى المحرم 1302/أكتوبر 1884 .

(85) محمد الهادي هو الابن البكر للشيخ محمد بيرم الخامس وكان فتى لم يبلغ العشرين من عمره لما اضطر والده إلى هجرة البلاد التونسية فالحقه أبوه مدة إقامته بالآستانة بمكتب خصوصي في مدينة جنيف من بلد سويسرة . ثم ارتحل مع أبيه إلى مصر حيث استقرت عائلته وهو الذي سهر على طبع الجزء الخامس من صفوة الاعتبار وذيله بترجمة أبيه .

(86) من أسرة الجزولي نسبة إلى قرية « جزولة » بالمغرب . انظر : دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة . ج 2 . ص ص : 540 — 541 . مقال بقلم محمد بن الشنب .

(87) هو محمد الناصربن محمد باي ولد في 28 شوال 1271/14 جويلية سنة 1855 وجلس على العرش الحسيني في 17 وبيع الأول 1324/11 ماي سنة 1906 وتوفي في 15 ذي القعدة 1340/10 جويلية سنة 1922 . وفي أيامه حدثت واقعة الزلاج سنة 1329/1911 وفي 7 شعبان 1340/5 أفريل سنة 1922 تنازل عن العرش لامتناع السفارة الفرنسية من تكذيب استجواب نشره الصحافي

« الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

أقسم بالوداد * وما حلّ بسويداء الفؤاد * من ألم البعاد * ومزيد الاشتياق إلى المراد * لقد أذاب الشوق نفوسا * وأراق من الأنس كئوسا * ولم يحل معه إيناس الجلاس * بطيب الأنفاس * ولا راقت منازه الأسفار * وإن أسفرت عن جبين الاستبشار * وكشفت عن محيا الآمال * في جميع الأعمال * وأبانت من تقلّب الأحوال * ما تضيق منه نفوس الرجال * وتفيق بالرجوع إلى الكبير المتعال * فتصبح رافلة في جلابيب الدراية * حافلة بما بان لها من تلك الآية * و ما هي فائدة السفر * لولا ما تفضي إليه من البعد عن خدن الودّ المعتبر * ويا لله ما أثّله الشوق * ممّا زاد على الطوق * وذلك الاشتياق * للمشتهر العجز على الإطلاق * الحازم الأقسم * الذي بانت مكارمه كنار على علم * الدرّاكة النقّادة * ذي الفطنة الوقّادة * والعراقة في المجادة * الجناب الملوكي المحمّدي الناصري لا زالت دوحة وداده دانية الجنى * تثمر له بحسن الثناء * الذي هو لأمثاله غاية المنى * أمّا بعد إهداء أيمن تحيّة * لائقة بالوصلة الروحيّة * والسؤال عن كريم خاطر السدّة السنيّة * وعن كافّة الأحوال * والأمل في الله أن يكون جريانها وفق الآمال * فلا يعزب عن شريف العلم ما عندنا من الشوق العظيم * وإني بما عندكم لعليم * كيف وأنا أرى الشوق لبلادي * وإيناس أهل ودادي * الأعزّ من أولادي * يتزايد في الروائح والغوادي * حتى دعاني إلى تخميس بيتين لأحد شعراء البلاد * (ص 57) يشكو فيهما ألم البلاد بقولي (من الطويل) :

خَلِيلَيَّ إنَّ البُعْدَ أفْنَى تَفَنُّنِي
وَأبْقَى فُؤَادي مِنْ جَنَى الشَّوْقِ يَجْتَنِي

« ديمازيار » واحتدت الأزمة بينما كان رئيس الجمهورية الفرنسية « ميلران » بالجزائر يتأهب للالتحاق بتونس . ثم تكفل الجنزال « روبيو » قائد الجيش الاحتلال ووزير الحرب للحكومة التونسية بإقناع الباي . وحصل منه فعلا الرجوع في التنازل وإمضاء نداء في تكذيب الشائعات المتعلقة به وفي حث السكان على الترحيب برئيس الجمهورية الفرنسية . والجدير بالملاحظة أن محمد الناصر باي تتلمذ في شبابه للشيخ محمد السنوسي . انظر : م. ص. مزالي : الوراثة : ص ص 12، 41—42 .

لِذَا تَرَيَانِي شَائِقًا لَسْتُ أَقْتَنِي
أَحِنُّ إِلَى الْخَضْرَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنِ
حَنِينَ مَشُوقٍ لِلْعِنَاقِ وَلِلضمّ
بِلاَدِي وَإِينَاسُ الفُؤَادِ رَبِيعُهَا
وَمِنْ وِدِّ أَخْدَانِي تَسَامَى بَدِيعُهَا
هِيَ الأمُّ لِلأَبْنَاءِ تَحْنُو ضُلُوعُهَا
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ جِسْمِي رَضِيعُهَا
وَلاَبُدَّ مِن شَوْقِ الرضيعِ إلى الأمّ

وقد كان القلق كاد أن يذيقني ألم الأرق بسبب الابتعاد ، عن منبت الأبناء ومسكن الأجداد ، غير أنّ لطف اللطيف ، تدارك العبد الضعيف ، بتيسير السفر إلى بلد الله الحرام ، وزيارة قبر نبيّه عليه السلام ، وذلك أعظم ما تأنس له النفوس ، ويسعى أولو الأحلام إليه ولو على الرؤوس ، نسأل الله حسن البلوغ والإيّاب ، وأن يمتّعنا بحسن القبول وجمع الشمل بالأحباب ، إنّه كريم وهّاب ، وقد تعيّن بإرادة الله وحوله السفر مساء غد التاريخ ونؤمل من حسن عهدكم المحفوظ عندي أن تشملونا بدعاء عن ظهر غيب وإني على كلّ حال ، لكم داع ببلوغ الآمال ، ونجاح الأعمال ، وأمد السفر إلى جدّة نحو العشرة الأيّام ، نسأل الله أن يسخّر لنا فيها البحر بمحض الإنعام ، وعلى الله الاعتماد في بلوغ الأمل ، وجمع الشمل المكتمل ، ونرجو أن يبلغ مني إلى جناب أخيكم سلام أخلصه القلب من سويدائه ، يليق بسموّه وحسن أنبائه ، كما يبلغ إلى كافّة الجمع السعيد وعلى الخصوص أبنائنا السعداء حماهم الله وجملة أتباعكم فرداً فرداً أدام الله حفظكم وبقاءكم للجميع ، بجاه النبيّ الشفيع ، والسلام من معظّم قدركم ، وناشر فخركم ، مخلص ودّكم ، محمّد السنوسي وفّقه الله . وكتب في 10 ذي القعدة سنة 1299 (88) » . (ص 58)

---

(88) 23 سبتمبر 1882 .

فهـــرس الاعـــلام (1)

ـ الهمزة ـ

أبو حنيفة : 55

أحمد باي : 51

ـ البـاء ـ

بهرام اغة : 49

ـ الحـاء ـ

حسين : 48-49-50-51-52

ـ الخـاء ـ

خير الدين : 48-49-50-51-52-53

ـ الـراء ـ

رستم : 48-49-51

رسطان : 49

رشفور : 49

ـ السين ـ

سليم (السلطان سليم) : 54

سليم الشدياق : 49

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(1) الارقام تشير الى صفحات المخطوط

- الصاد -

الصادق باشا : 50

- العين -

عبد الرحمان الجزولي : 56

علاّلة بن الزاي : 50

- الميم -

محمّد (صلعم) : 56

محمّد بيرم : 48—55

محمّد خزنة دار : 50

محمّد السنوسي : 57

محمّد ظافر : 48—49—52—55

محمّد العربي زروق : 48

محمّد الهادي (بيرم) : 55

محمود بن عيّاد : 51

مصطفى بن إسماعيل : 48—49—50

مصطفى خزنة دار : 50—51

- النون -

نسيم شمّامة : 48

فهرس الاماكن

- الهمزة -

الأستانة : 48—49—50—52—53—55

أوربا : 50

إيطاليا : 50—52

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ الباء ـ

باريس : 51

ـ التاء ـ

تونس : 48ـ49ـ50ـ52ـ53

ـ الجيم ـ

جدّة : 57

ـ الفاء ـ

فرنسا : 49

ـ القاف ـ

قرنة : 48

ـ الميم ـ

مصر : 48

ـ النون ـ

النفيضة : 49

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهرس المصنفات الوارد ذكرها في النص

أقوم المسالك (لخير الدين) : 52ـ53

الرائد التونسي (صحيفة) : 53

غرر الفرائد (لمحمّد السنوسي) : 53

ملاحظة :

بعد الفراغ من اعداد هذه الدراسة في مارس 1970 ، تمكنا من الاطلاع في صيف 1970 ، بمكتبة الصربون بباريس ، على اطروحة الاستاذ احمد عبد السلام وعنوانها : « Les historiens tunisiens des XVIIe , XVIIIe et XIXe siècles ».

وهي مرقونة ومسجلة بالمكتبة المذكورة تحت عدد : [W - 1969 - 26 - 4°]

ولذلك لم نتمكن من الاستفادة منها في نطاق عملنا هذا . والجدير بالملاحظة ان المؤلف أثبت ان « النبذة التاريخية في نشاة مصطفى بن اسماعيل » من تاليف محمد السنوسي وهذا ما ذهبنا اليه في بحثنا قبل ان نطلع على الاطروحة المذكورة .

« توفيق الحكيم ، فنان الفرجة ٠٠ وفنان الفكر »

تاليف : الدكتور علي الراعي ـ كتاب الهـلال ـ العدد 224 ، نوفمبر 1969 ـ تاليف : القـاضي النعمـان بن محمد 218 ص .

نقد وتقديم بقلم : حسن الصادق الاسود

كثر النّقاش حول أدب الحكيم لغزارته وتشعّبه ، وتباينت الآراء ، تبعًا لذلك في توضيحه ، والتّخطيط لدراسته وتدريسه . ويعدّ كتاب الدكتور علي الراعـي من أهمّ الوثائق التي تضاف إلى هذا الملفّ الحافـل بالقضايا والاتّجاهات . إذ هو يتناول وضع جانب هامّ من هذا الإنتاج ، ألا وهو المسرح . في أطواره المختلفة . وخطوطه البارزة منذ بدايته الأولى عام 1919 ، تاريخ ظهور أوّل عمل فنّي متكامل للحكيم . وهي تمثيلية « الضّيف الثّقيل » حتّى عام 1969 حيث أعطانا نصًا لمسرحية مرتجلة وهي « هارون الرشيد وهارون الرّشيد » .

وقارىء الكتاب يستشفّ مدى متانة الصّداقة بين صاحبه وتوفيق الحكيم ، هذه الصّداقة التي سمحت له بالتعرّف على آرائه مباشرة . فكان هنالك حوار ، وكان هنالك نقد ، وتلاقح بين الأفكار لتعديلها أو تصويبها ، وفتح آفاق جديدة أمامها ومن حولها . وعادة ما كان الحديث بينهما يدور حول المسرح ، ووسائله ، وتيّاراته المتباينة في عصرنا الحديث . وحول كفاح الحكيم المستميت

مدّة نصف قرن في سبيل استنبات هذا الفنّ في أدبنا العربي ، والبحث عن صيغ تسمح له بتأصيله وتدعيمه في مجتمعنا (1) .

أضف إلى ذلك مالشهادة الدكتور علي الرّاعي من قيمة وخطر ، إذ هو من أبرز المشتغلين بالمسرح والمهتمّين به ، والمحبّين له في مصر ، فهو رئيس مؤسسة المسرح بوزارة الإرشاد القومي في بلاده منذ 1958 ، وهو الذي أخرج إلى حيّز الوجود مشروع متحف المسرح ، ومكتبة الفنون الدرامية سنة 1962 ، مثّل بلاده في مؤتمرات مسرحية دولية كثيرة ، طرقت من المواضيع أهمّها كـ « الشرق والغرب في المسرح » بطوكيو عام 1963 ، و« المسرح الشامل » بنيودلهي 1966 . ثم إنّه سافر إلى أنجلترا في مايو 1968 لدراسة أساليب تدريس الدراما ، وكانت غايته دائما البحث عن صيغة عربية للمسرح تنبعُ من واقعنا ، وتشدّه إلى قلوب جماهيرنا ، فلا نشعر بغربته عنّا .

ويظهر هذا التّحمّس الشّديد لتحقيق هذه الغاية المنشودة في كتابه « الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري » حيث يدعو إلى الرجوع إلى الأصول الشّعبية ، « إذا كنّا نريد حقّا أن ننتج شيئا ذا بال في ميدان التأليف والتمثيل معا (2) » ، كما يوضح لنا كتابه « مسرح برناردشو » مدى تعمقه في معرفة المسرح الأوربّي المعاصر (3) .

وليس الدكتور علي الراعي غريبا عن بلادنا ، إذ أنّه كان من أعضاء لجنة التّحكيم في المهرجان الثالث لمسرح المغرب العربي الذي انعقد بالحمّامات سنة 1968 ، فتعرّف على أهمّ اتجاهات هذا المسرح على العين ، وذكر ذلك

1) المصدر نفسه ، ص ص : 11 ، 39 ، 148 ، 149 ، و 156.

2) على الراعي : الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري ـ كتاب الهلال ، العدد 212 ، نوفمبر 1968، 257 ص ـ انظر ص ص : 94 ، 126 ، 127 و 128.

3) على الراعي : توفيق الحكيم ، فنان الفرجة ـ وفنان الفكر ، ص 137.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مقدمة كتابه « الكوميديا المرتجلة » بكلّ تحمّس وإعجاب (4) . كل ما تقدّم حدا بنا إلى تقديم هذا الكتاب والتعليق عليه .

***

« نحو الأرفع والأنفع في الفنّ » ، شعار وقف الحكيم حياته على تحقيقه ، وأخذته عنه مجلّة « المسرح » القاهريـة الصّادرة منذ 1964 عن دار (مسرح الحكيم) ، إيمانا منها بقيمة الثقافة المسرحية الرفيعة ، وتقديرا للجهود الكبرى التي قام بها كاتبنا في هذا الفنّ بالذات . وتدلّ اعترافاته في مقدمات كتبه على أنّ لديه شخصية تتميّز بالقلق الدائم مع نفسه ، والصفاء الطارىء مع الحياة الخارجية (5) . فالدراما الفكرية أقرب إلى نفسه من أيّ نوع آخر من أنواع الأدب ، وإن كانت الفكاهة والمرح لا يغيبان أبدا عن إنتاجه الغزير . وربّما كان هذا القلق المقيم هو سبب ما اتّصفت به آثاره من تنوع في الموضوعات ، والقوالب ، والإتجاهات . ومهما يكن من أمر فإنّ رغبة الحكيم في التفكير المتعمّق ، والتأمّل المتّصل ، لم تقتل في نفسه نزعة أخرى لا تقل عنها تمكّنا ألا وهي العمل الدائب على الوصول إلى الجمهور العريض . وهذا الجهد الجبّار المبذول في ميدان الخلق والإبداع هو الذي جعله يشك أحيانا في موهبته ، ويتوجّس خيفة من أن ظاهرة التّنوّع هذه في إنتاجه قد تضرّ بمستواه الفكري والفنّي معا (6) . والحقّ أنّه يتسلّى عن ذلك أحيانا

---

4) علي الراعي : الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري ، ص ص : 7 – 15.

5) المصدر نفسه ، ص ص : 8 – 9.
وانظر خاصة : « سجن العمر » (1968) ، و « زهرة العمر » (1943) ، ثم « فن الادب » (1952) ، و « من البرج العاجي » (1941) ، وذلك حسب اهمية اعترافات الحكيم في هذه الكتب
يقول في « زهرة العمر » : « اني اذ ارفع بصري الى الحياة الخارجية ، وانسى نفسي الداخلية، يعود الي الصفاء ، ويشرق وجهي بروح الفكاهة والمرح – اني استطيع ان اكون اكثر الناس مرحا ودعابة وضحكا – فانا املك هذه الروح الفكاهية احيانا ·· غير اني اجرؤ على الابتسام طويلا . » م – ن ، 9 .

6) « وربما كنا جيلا مضحيا ، ضحى بنفسه ووقته في سبيل رحلة مستحيلة ، دفعه اليها الهلع من منظر الفجوة المظلمة ، فانطلق يكتب ويكتب ويسود الورق ، ويملأ الصفحات بظلام المداد فيما لا جدوي منه ·· من يدري ؟ – اللهم ·· لو كانت كـل السنوات الثلاثين قـد ذهبت عبثا ، فاغفر لنا حماقتنا وحسن نيتنا ، والهمنا – فيما تبقى لنا من عمر – بعض الصبر على ما ابتلينا به وقدمت ايدينا » م – ن ، ص 122 .

بأنّه من الفنّانين الرّواد ، الذين كتب عليهم البذر وسدّ الفراغ الهائل الذي كان الأدب العربي يشكو منه في ميادين كثيرة . فلم يتخصص الحكيم في باب من أبواب الأدب بل طرفها جميعا ، فكتب في القصّة ، والمسرح ، والمقالة ، والسّيرة وحتّى الشعر ، إذ كان يؤمن بالغ الايمان بأنّ هذه المرحلة ، مرحلة الانشاء والتكوين ، لابدّ لها أن تعتمد على سياسة البذر على أوسع نطاق (7) .

ولم يكن يستقي موضوعاته ، ويستوحي أفكاره من مصدر بعينه ، بل كان يبحث عن ضالّته في الاساطير القديمة الّتي وردتنا عن اليونان والمصريين وغيرهما من الشعوب ، وفي الكتب الدينية ، وأخبار الصحف ، بل وحتّى في بريد القرّاء في الجرائد والمجلاّت . وكذلك فإنّه لم يتقيّد بمدرسة فنّية واحدة أو شكل فني بذاته ، بل إنّه حاول الكتابة في كل ما تأثّر به من مدارس وأشكال . وبقيت كثير من مسرحياته على الخصوص تتميّز بظواهر فنّية تربطها إلى ألوان فنّية أخرى كالأوبرا ، والأوبيرات ، والبالي ، بل إنّ الكثير منها بقي محتاجا إلى تفسير تلو تفسير نظراً لكثرة ما فيها من الأفكار ، والموضوعات ، والمواقف (8) .

وها نحن نبيّن أهمّ المراحل التي مرّ بها هذا الإنتاج المسرحي الضّخم .

(I) فنّان الفرجة (ص ص 13—40)

كان الحكيم ميّالا ، منذ بدايته في المسرح ، إلى تعمّق القضايا الإنسانية الأساسية . ويبدو ذلك واضحا في إحدى مسرحياته المبكرة التي كتبها عام 1923 ، ونعني بذلك « المرأة الجديدة » ، فهي في الواقع مسرحية ذات قضية (Pièce à thèse) ، قضية حرّية المرأة . وسيتّضح هذا الإتجاه من

7) 8) المصدر نفسه، ص ص : 156 ــ 159 .

بعد في أهمّ ما كتبه للمسرح ، إلاّ أنّ هذا النّوع من التمثيليات له من المزايا العديد ، وله أيضا من العيوب الكثير ، أهمّها أنّ الكاتب يجبر فيها على إخضاع الحوادث للفكرة ، بدل أن تقود الحوادث خطانا بالطّبيعة إلى هذه الفكرة . ثمّ إن الجمهور لا يمكن له أن يتحمّل ، طوال العرض ، مثل هذه القضايا الفكرية المعقّدة ، فلا بدّ إذن من اللجوء إلى عنصر الفكاهة والتّرفيه في هذا الباب .

كيف التوفيق بين هذين الضّدّين ؟ ذلك ما أقضّ مضجع الحكيم طوال حياته المسرحية ، إذ أنّ الفكاهة ، ووسائل التّرفيه والتشخيص ، أمر محتّم مع جمهور كالجمهور المصري في العشرينيات ، عندما كان لا يرى في المسرحيات ذات القضايا إلاّ تعالما (Pédantisme) ، وبعدا عن إفادة المتفرجين وإمتاعهم . ولقد حاول الحكيم دوما أن يجد الطريق الوسط ، ذلك الذي يسمح له بمزج المسرح الجادّ بالكوميديا الرّاقية ، فيطرق المشاكل الإنسانية طرقا لا يخلو من أساليب الفرجة والتشويق . وكانت النتيجة أن أعرضت الفرق العاملة عن تمثيل مثل هذه الروايات ، فاضطر إلى متابعة التيار الغالب مكرها ، ولو إلى حين . كانت الكلمة إذ ذاك للمسرح السّهل السريع ، للفودفيل والمسرحية البوليسية ، للنجاح التجاري القريب .

وقصد الحكيم باريس للدراسة (1925) ، وكلّه حنق على هذه الأوضاع المزرية في نظره : قصص فارغة من العقل ، قائمة على مجرّد الحوادث المثيرة ، والحركات الغريبة ، والمفاجآت الخارقة ؛ حوار لا يرتكز على الفكر ، ولا يعتمد الأدب والفلسفة ، كما هو الحال في روايتيه علي بابا (1926) وخاتم سليمان (1924) ؛ عاملون في المسرح يغلب عليهم التهريج والانحطاط الإخلاقي . كل ذلك جعل الحكيم يقرّ في كتابه القديم « من البرج العاجي » (1941) بما يلي : « في حياتي الفنيّة جانب مجهول أردت أن لا أعترف به ، وأردت أن أقصيه ، وأن أسدل عليه الستار ، لأنّه في نظري اليوم لا يتّصل بأدبي ،

ولا يجوز أن يدخل في عداد عملي : ذلك هو عهد إشتغالي بكتابة القصص التمثيلي لفرقة عكاشة حوالي سنة 1923 » (9) . إلا أنّ هذه الأعمال لم تذهب سدى ، ولا يمكن لنا كباحثين ، إهمالها ، إعتمادا على إعترافه هو ، حين يقول في نفس الكتاب : « ... كان هذا العمل إذن بمثابة مدرسة لتمرين كتاب مسرحنا ، وإتاحة الفرصة لمن أراد منهم أن يفرد جناحيه في المستقبل لتطير بمفرده » (10) .

(II) فنّان الفكر : ص ص : 41—59

وبعد عودته من باريس (1927) كافح الحكيم في سبيل رفع المستوى الفنّي للأدب والمسرح في بلاده ، وعارض معارضة تامّة ما كان ينشر في الأسواق من تمثيليات تحسب على المسرح وليست منه في شيء . وفي هذا الوقت بالذات أخذ يفكر فيما سيسمّيه من بعد : « المسرح الذهني » ، هذه العبارة الّتي تشبث بها النـّقـّاد ، وأخذوها قضية مسلّمة ، لدى حديثهم عن بعض مسرحيات الحكيم الّتي يغلب فيها الطابع الفكري على طابع العرض المسرحي .

بدأت هذه السلسلة بـ(شهرزاد) سنة 1933 ، وانتهت بـ (الملك أوديب) عام 1949 ، وهي ستٌّ : (شهرزاد 1933— أهل الكهف 1934 — براكساه أو مشكلة الحكم 1939 — بيجماليون 1942 — سليمان الحكيم 1943 — الملك أوديب 1949) .

ومن هذا العرض البسيط نتبيّن مدى إحتقار الحكيم للمسرح التهريجي في بلاده ، أراد أن يأخذ جانب الفنّ المحترم كيلا يكون عرضة للغمز واللمز ؛

9) نقلا عن فؤاد دوارة : مسرحيات لم تنشر للحكيم ، الهلال ، فبراير 1968 ، ص ص : 122 — 132 ، المقدمة

10) نقلا عن الهلال ، فبراير 1968 « الحكيم وسجن العمر » ص ص : 50 — 75 ، وهي عبارة عن مجموعة من الوثائق والصور والمختارات التي تخص حياة الحكيم وآثاره . انظر ص : 55 .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أراد أن يبيّن النّاس أنّ هنالك مسرحا يستحقّ التقدير ، يستحق إعتباره أدبا أصيلا ، فيه فكر عميق ، وذوق رفيع يبتعد به كل البعد عن المغامرات الرّخيصة ، والمفاجآت المفتعلة ، والكنوز السحرية ، وغيرها من ساذج الوسائل التي كان المسرح المصري آنذاك قد ركن إليها (11) .

والغريب في هذا الباب أن الحكيم لم يغفل تنويع وسائل التّشويق لغاية الرّبط بين الخطّ الفكري العسير ، وبين ميول الجمهور المتأصّلة . فأنت تراه في رواية شهرزاد مثلا يستعمل مشوقات بصرية وحسّيّة متعدّدة يمكن تحسيدها وأحداثاً مادية كثيرة يمكن تمثيلها بالإعتماد على وسائل المسرح المعهودة . فـ (شهرزاد) إنّما هي في الواقع البحث عن المعرفة ، وصفحة الغلاف أكبر شاهد على ذلك إذ نجد تحت عنوان الرّواية هذه العبارات : « أنا كلّ ما كان ، كلّ ما يكون ، كلّ ما سيكون ، قناعي لم يكشفه بعد إنسان ... » (إيزيس) ؛ غير أن هذا البحث عن المعرفة كان من أمتع وأعمق ما كتبه صاحبنا في ميدان المسرح الحيّ . فلئن كان الموقف الفكري هنا هو الأصل ، فإنّ الحكيم يجسّده مادّيا ، ويترجمه بصريا بشتّى الوسائل ؛ وعادة ما نجد هذه التّرجمة في مقدّمات المناظر وخلال الفصول ، وفي رواية الأحداث ، ما كان منها في الماضي وما هو واقع الان في المسرحية . ومهما يكن من أمر فإنّه لا ينسى أبدا عنصر التشويق الرّئيسي ألا وهو قصص الغرام ، وذلك واضح كل الوضوح في (شهرزاد) .

ثم إنه يجعل للمسرحية نهاية « ميلودرامية » ، عندما ينتحر الوزير قمر ، ويبقى صديقه السّلطان شهريار « معلّقا بين الأرض والسّماء ، ينخر فيه القلق » في نهاية قصّة هذا الحبّ المستحيل . وهنالك بالأخصّ هذا الحوار الثّنائي والثلاثي والرّباعي الذي أبدع فيه الحكيم ، بل إننا نجد ما هو أقرب

---

11) انظر : سعد اردش : « تجربتي مع مسرح الحكيم » ، م ــ ن ، صص : 112 ــ 121 .

إلى فنّ الفرجة من هذا الذي قدّمنا : فهذه مثلا قصّة الساحر وابنته العذراء في أوّل المسرحية وما يكتنفها من الأسرار الرّهيبة ؛ وهذا خان أبي ميسور حيث الكيف سلطان ، وها هي المشادة بين شهريار وقمر فيما يتّصل بقيمة حبّ هذا الأخير لشهرزاد ؛ وها هو العبد يتسلّل إلى خدر شهرزاد ليلا ، إلى غير ذلك من هذه المشاهدة التي تبعث على الخوف ، والإستغراب ، وحبّ التّطلّع .

ويعتقد الرّاسخون من رجال المسرح ، ومنهم علي الرّاعي صاحب الكتاب المنقود ، أنّ أفضل الأشكال الفنيّة التي يمكن أن تصبّ فيها (شهرزاد) كعمل مسرحي متكامل ، إنّما هو « البالي » (12) ، إذ لابدّ لتمثيلها التمثيل اللاّئق ، في نظر الحكيم ذاته ، من إضاءة خاصّة ، وألوان متعدّدة ، وديكور مبتكر ، ورقصات موافقة لشخصيات الأبطال ، وموسيقى دالّة على ما يعانون من تجارب نفسية . عند ذلك ، وعند ذلك فقط تنطلق الفكرة من عقالها ، ويكتمل تأثيرها الفنّي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمّا في (أهل الكهف) فإنّه يطرق مشكلة الزمن ، وهو يدرس في (براكسا) مشكلة الحكم ، ويصوّر في (بيجماليون) حيرة الفنّان بين الحقيقة والحلم ؛ ويشير في (سليمان الحكيم) إلى مأساة التّناقض بين القدرة والحكمة ؛ وأمّا في (أوديب الملك) فإنّه يحلّل لنا التّناقض بين التّخيير والتّسيير في حياة الإنسان . ومن عجب أنّه عالج كلّ هذه المشاكل الأساسية المعقّدة علاجا رقيقا شيّقا ذهب بجفافها ، وقرّبها إلى القلوب والأذهان ، فأدخل في كلّ منها خطّا غراميا يوازي الخطّ الفكري ، ويوضّحه ، ويجسّده ، وجعل لخواتمها نهايات ميلودرامية تحبّبها إلى العقليات العامية . وربّما كانت قوالب الأوبرا ، والأوبيرات ، والبالي هي القوالب الفنّية التي تليق بهذه المسرحيات الشعرية ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور علي الرّاعي بكلّ وضوح (13) .

12) 13) علي الراعي : « توفيق الحكيم ـ فنان الفرجة وفنان الفكر » ، ص ص : 41 ـ 59 و 159.

(III) مسرح على الورق : ص ص 60—81

ومن الطبيعي أن لا تجد هذه الجهود الجبّارة أيّ رواج تجاري .

وينتقل صاحبنا إلى ميدان الصّحافة ، ويشارك في تحرير جريدة « أخبار اليوم » من عام 1945 إلى عام 1950 . أعطته الصّحيفة فسحة يكتب فيها ما يعنّ له من خواطر في الأدب والمسرح ، وكانت الحصيلة مجموعة من الرّوايات القصيرة ، ذات الفصل الواحد أو الفصلين عادة ، شملها فيما بعد كتاب سمّاه « مسرح المجتمع » (1950) . وأجبره عمله الصّحفي على إعتماد الإيجاز ، والوضوح ، واستقاء الموضوعات من صميم الواقع المصري . وهو يقول في ذلك : « إنّ الحقيقة لتقتضي التّصريح بأنه ما من قصّة هنا خلا متها مشهد « على الأقلّ » إنتزع بالفعل من واقع الحياة ... حتّى ما قد يبدو أحيانا أنّه عجيب ... إن الحياة أجرأ من الفنّان ... » (14) .

وكان لطبيعة هذه الفترة دخل كبير في توجيهه هذه الوجهة ، إذ أنّ العالم خرج منذ قليل من حرب طاحنة ، وانطلق إلى مجابهة مشاكل السّلام الّتي فرضت نفسها على الناس ، وعلى المجتمع المصري بالخصوص . وهنالك كثير ممّن أطلق على هذه المجموعة إسم « يوميات كاتب في القاهرة » (15) ، تشبيها لها بكتابه الشهير : « يوميات نائب في الأرياف » . ومنهم صاحب الكتاب المنقود . فلقد طرق فيها كلّ ما يتّصل بحياة المجتمع القاهري من قريب ، مع قدرة على اللذع ، والفضح ، والفكاهة أغرت الكثير الكثير من قرّاء جريدة (أخبار اليوم) . ولم يكن في هذا القسم من حياته المسرحية يؤلّف لمسرح النظارة ، وإنّما كان يكتب مسرحا على الورق ، يمزج فيه المواقف الهزلية مزجا بارعا ليقول شيئا جدّيا كلّ الجدّية . ولقد أعانه هذا

---

14) « مسرح المجتمع » ، ص : 4 .

15) علي الراعي : م — ن ، ص : 61.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التحرّر من مشاكل الممثلين وفرقهم المسرحية على تجسيد فكرته ، وإلباسها ثوب الحياة اليومية دون تنازل عن مقوّماتها الفنّية ، وإظهار براعته في إستخدام الأفكار إستخداما مسرحيا جذّابا أعطاه قدرة على إيصال فكرته لجمهور عريض جدّا .

(IV) التّوازن : ص ص 82—116

وبعد إنقطاع عن الفرق والنّظارة دام خمس سنوات ، نراه يرجع إلى المسرح ، لكن بـ « تكنيك » جديد ، وجمالية (esthétique) مستحدثة ، تعتبر العمل الفني كلاّ متماسكا لا يتجزأ ، فيه تجسيد للفكر تجسيدا حقيقيا ، بدلا من إقتصار الكاتب على مجرّد إحتوائه في إطار مسرحي . وهذه المرحلة هي مرحلة مسرحيات التّوازن ، أي التوازن بين عنصري الفكر والفرجة في التمثيلية الواحدة .بدأت هذه الفترة سنة 1954 عندما كتب « الأيدي النّاعمة » ، وربّما تكون قد إنتهت بـ « الورطة » (1966) . ومجموع المسرحيات التي هي على هذه الشاكلة : ثمانية .

والملاحظ أنّ مسرحية « الأيدي النّاعمة » هي أوّل مسرحية يكتبها الحكيم بعد ثورة 1952 ، وكذلك أوّل مسرحية يكتبها بعد عودته من مسرح الورق إلى مسرح النظّارة ؛ يعتمد فيها على الثنائي الفكه : أمير إقطاعي سابقا ، وعالم في النحو لا يجد عملا ، يجمع بينهما التّبطّل فيضحكان من المجتمع ويقهقهان ، بعد تعريته من وقاره المفتعل (16) .

أمّا في رواية « إيزيس » فإنّه يطرق مشكل الصّراع بين أسلوبين من أساليب الحياة ، أعني به الصّراع بين رجل العلم ورجل السياسة . وهي أوّل مسرحية أسطورية بعد عودته من غربة مسرح الورق . ولقد غيّر الحكيم فيها

---

16) م ـ ن ، ص ـ 84 .

نظرته إلى دور الأسطورة في المسرح المعاصر ، فلم تعد الأسطورة تعبيرا عن واقع خرافي قديم يجلّله التّقديس ، ويكتنف أشخاصه الغموض ، بل إنه جعل من غاياته ، في مقدّمتها ، تخريج معناها على النّحو المفهوم الحيّ في كلّ عصر ، وفي العصور الحديثة على الخصوص (17) .

وأمّا في « الصّفقة » فإنّه كان يطمح إلى التبسيط في الفكرة والشّكل حتى تتسنى مشاهدتها لكلّ الجماهير ، وذلك بربط أحداثها بواقع المجتمع ، ومزج الدّراما فيها بالفنون الفلكلورية المنتشرة في الأوساط الشّعبية الريّفية « من رقص وتحطيب وغناء في إطار المسرحية ، وأن تدور كلّها في العراء أو الجرْن أو أمام مصطبة ... » (18) .

وممّا يجلب إنتباه الباحث في هذا الصّدد أن هذه المسرحيات أثارت من الأسئلة الكثير ، ولم تقدّم لنا الجواب إلاّ في القليل . وليس ذلك بمعيب ، بل ربّما كان ميزة من أوضح ميزات العمل الفني الفكري الحيّ الأصيل .

(٧) الفنّان ينكسر قلبه : ص ص 116—135

وفي عام 1966 نرى الشّك يتغلّب على الحكيم ، والقنوط يملأ قلبه ، فيلجأ إلى أسلوب السخرية القاتل ، لينزل بالإنسان إلى مرتبة الحشرات ، وتأخذه الرّيبة في كلّ ما يقوم به البشر ، وتظهر في مسرحه نبرة من المرارة العميقة ، والسّخط الجارف ، وذلك بالأخصّ في مسرحيته « مصير صرصار » ؛ هنالك ينفجر غضبه على الجنس البشري بأكمله ، وتثور ثائرته على الفكر وأساليبه فيلغيه إلغاء ، ويهوي بالإنسان إلى العالم السفلي حيث لا نرى إلاّ نملا وصراصير تتناهش وتتقاتل كأتفه ما تكون هذه المشاهد في عالم الحشرات الدنيء الرّهيب (19) .

---

17) م — ن ، ص — 88 .
18) م — ن ، ص — 92 .
19) م — ن ، ص — 117 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك مسرحية « كل شيء في محلّه » (1966) حيث نرن الناس في القرية يلغون العقل ، وتتساوى بينهم جميع القيم ، فيتحكم فيهم اللاّعقل واللامبالاة . وفي « بنك القلق » (1967) يهرب البطل من مواجهة الحقيقة الواضحة ليرتمي بين أحضان المثل الوهمية بكلّيته . وكأنّ واجب المسرح أصبح عنده إلقاء الأضواء على جوانب الإنسان الغامضة التي تنخر باطنه ، والتي يعاني منها كلّ يوم ، دون أن يجد لها حلاّ معقولا ، أو تعليلا مقبولا . ويبدو أنّ هذه المرحلة التي إعتمدت الهدم أساسا ، والمراجعة الجذرية طريقا ، لم تدم ، لحسن الحظ أو لسوئه ، إلاّ سنتين إثنتين .

(VI) البحث عن قوالب جديدة : ص ص 135—156

أمّا المرحلة الأخيرة من مراحل تطوّره الفنّي ، فهي ما يمكن تسميته بمرحلة البحث عن قوالب جديدة ، إذ نراه في عامي 1966 و1967 يقوم بمحاولتين مختلفتي الاتّجاه ، وإن إلتقتا في الهدف ، وهو البحث عن قوالب جديدة يصبّ فيها فنّه .

كانت أوّل المحاولات في هذا المسلك الجديد هي مسرحية « بنك القلق » التي كتبها على شكل روائي مسرحي ، وهو ما سمّاه المسرواية . ويتّضح من خلال هذا الأثر جهد واضح للوصول إلى جمهور أكبر ، والخروج من الثنائية التي كان يعاني منها قديما ، والمتمثلة في الصّراع المستمرّ بين فنّان الفرجة وفنّان الفكر . والغاية من هذه التجربة هي الوصول إلى ما يسمّيه « الفنّ الموسّع » أي الفنّ الذي يمزج بين خاصيات الرّواية ، وأساليب المسرحية .

أما في كتابه « قالبنا المسرحي » فإنّه يحاول البحث عن صيغة مسرحية شعبية نجد لها جذورا عميقة في أدبنا الشعبي ، وفي أدبنا العربي القديم أيضا . فهو يقول في هذا المضمار : « كان كلّ ما نصبوا إليه هو أن يكون مبلغ أصالتنا إحتواء أعمالنا على قدر من الطّعم الخاص ، والرّائحة التي تتمّ

علينا ، مع قدر من الإتقان الفنّـي يشهد لنا به الغير ... لكن بقي مطلب أو مطمع يراود الكثيرين : ذلك هو الشّكل أو القالب ... وكان التّساؤل هو : هل يمكن أن نخرج عن نطاق القالب العالمي وأن نستحدث لنا قالبا وشكلا مسرحيا مستخرجا من داخل أرضنا ، وباطن تراثنا ؟ ... » (20) .

ومن ميزات هذا الإتجاه إحلال التمثيل المرتجل ومبدإ الفرجة الصّاخبة محلّ الفرجة النّائمة التي عهدناها في المسرح الأوربّـي الكلاسيكي ، وذلك بالتركيز على شخصيّتي الرّاوية والمقلّد فهذا البحث القلق الدّائم عن الأسلوب وهذه الرّغبة الملحّة في التجريب هي التي دفعته دوما إلى البحث عن خلق قالب مسرحي عربي صميم ، يكون نابعا من تربتنا ، ومتّسعا لإنتاجنا ، قادرا على إحتواء كلّ أنواع المسرحيات : عالمية ومحلّية ، قديمة وعصرية ، مع قلّة النّفقات في الإخراج والتمثيل . ولقد إختار لنا في هذا الكتاب نماذج قصيرة من إسخيلوس ، وشكسبير ، وموليار ، وإبسن ، وتشيخوف وبيرندلو ودورنمات ، بعد صبّها في قالبنا العربي هذا .

وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على رغبة أصيلة لإرضاء النّفس وإثراء الفنّ . وما كان ذلك أبدا ، كما يزعم بعضهم ، لمجرّد التّغيير ، والرّغبة في الجديد . وله في هذه المحاولات ثلاث غايات :

1) العودة إلى منابعنا الأصلية .

2) إبعاد المسرح عن مجالات المنافسة مع السّنما الطّاغية .

3) تحقيق شعبية الثقافة العليا .

« ومن هنا كان قالبنا هذا ، مع أنّ منبعه بدائي يتّصل بأحدث نظريات المسرح المعاصر » . (مقدمة « قالبنا المسرحي » ص 19) .

---

20) قالبنا المسرحي : ص 11 .

إنّ الناظر ، بعد هذه العجالة ، إلى هذا الإنتراج المسرحي الضّخم ، يجد أنه مرّ في الواقع بمراحل تاريخية محدّدة ، وأنّ هذه المراحل التاريخية هي التي تفسّر لنا هذه التطورات التي عرفها الحكيم ، إذ لم تكن آثاره فيها إلاّ تشخيصا لما كان يدور في نفسه ومجتمعه من مشاكل وأحوال تغلب عليها الصبغة الفكرية طورا ، ويغمرها الطابع الإجتماعي أحيانا أخرى . ولقد كان خليقا بأن يلحّ في مقدّمته القصيرة « للمسرح المنوع » (1956) على هذه « المحاولة المجنونة القلقة لسدّ فجوة هائلة كان يجب أن تملأها تجارب سلسلة متّصلة من أدباء القرون الماضية» .

ولئن كان هذا التّطوّر الفنّي العجيب يوضّح لنا الكثير من مشاكل هذه الثروة المسرحية الطائلة ، فإنّه علينا أن لا ننسى أنّ شخصية الحكيم بدأت تظهر منذ أوائل محاولاته في الكتابة للمسرح . فأنت تجده لا يغفل الاتجاه الفكري حتّى في مسرحياته المبكرة التي تبدو وكأنها بعيدة كل البعد عن ميدان التفلسف والتأمّل . ومن اليسير عليك أن تتفطّن إلى حبّه التّقريب بين المسرح والجمهور ، هذا الميل الذي لم يزاوله أبدا حتّى في أهمّ أطوار مسرحه الذهني . أمّا إعتماد اللغة المبسّطة ، وأساليب المسرح الشّعبي ، فإن ذلك يتّضح لك منذ مسرحياته الأولى كالزّمّار (1932) ، والصفقة (1956) ، بل إنّك ترى أنّ مسرح اللاّمعقول ، هذا الذي مال إليه الحكيم لبعض الوقت ، لم يكن جديدا ، إذ أنّ صاحبنا قد تطرّق إليه في إنتاج مبكّر ، أعني « نهر الجنون » ؛ (1935) ولم يبدأه بـ« يا طالع الشجرة » (1962) كما يتبادر إلى الذهن عادة . « نعم ، لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه « خريطة » واضحة المعالم ، دقيقة التّفاطيل ! ... كان قد طرح في مصر مهنة المحاماة والقانون ، ليمضي في حمل القلم ، ويقول للناس أشياء ، يعتقد أنّها قد تنفعهم ! .. وما كان يريد غير ذلك ، ولا يطمع من حياته في غير ذلك . فلا الجاه العريض كان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يعزيه ، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ، ولا الثّراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه ! .. » (21) .

ولعلّنا بهذا الجدول البياني نستطيع أن نلخّص أهمّ الخطوط الفكرية والفنيّة التي أشرنا إليها في مسرح الحكيم حتّى الان :

التّاريخ	نوع المسرح	عدد السنوات	أهم التمثيليات
1933—1919	المسرح اللاّ هي	14	12
1949—1933	المسرح الذّ هني	16	6
1950—1945	المسرح الاجتماعي	5	21
1966—1954	مسرح التّوازن	12	8
1967—1966	مسرح اللاّ معقول	1	3
1969—1967	البحث عن قوالب جديدة	2	2
		=50	= 52

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسرحيات توفيق الحكيم مرتّبة زمنيا

1	الضيف الثقيل	1919	مفقودة
2	أمينوسا	1922	لم تنشر
3	العريس	1924	مفقودة
4	خاتم سليمان	1924	لم تنشر
5	علي بابا	1926	لم تنشر
6	المرأة الجديدة	1923	*
7	شباك التذاكر	1926	*
8	الخروج من الجنّة	1928	*
9	سرّ المنتحرة	1929	*

21) من كتاب « فن الادب » ، نقلا عن الهلال ، فبراير 1968 ، « الحكيم وسجن العمر » ، ص ـ 61.

10	حياة تحطّمت	1930	*
11	رصاصة في القلب	1931	*
12	الزمّار	1932	*
13	أهل الكهف	1933	
14	شهرزاد	1934	
15	جنسنا اللّطيف	1935	*
16	نهر الجنون	1935	*
17	حديث صحفي	1938	*
18	براكسا : أو مشكلة الحكم	1939 و1954	
19	صلاة الملائكة	1941	*
20	بجماليون	1942	
21	سليمان الحكيم	1943	
22	بين يوم وليلة	1945—1950	□
23	أريد أن أقتل	»	□
24	النائبة المحترمة	»	□
25	أصحاب السّعادة الزّوجية	»	□
26	ميلاد بطل	1945—1950	□
27	اللّص	»	□
28	أريد هذا الرُّجل	»	□
29	عرف كيف يموت	»	□
30	المخرج	»	□
31	عمّارة المعلّم كندوز	»	□
32	الكنز	»	□
33	بيت النّمل	»	□
34	أعمال حرّة	»	□
35	ساحرة	»	
36	الحبّ العذري	»	
37	الجياع	»	

38	العشّ الهادىء	»	□
39	مفتاح النّجاح	»	□
40	الرّجل الذي صمد	»	□
41	لو عرف الشباب	»	□
42	أغنية الموت	»	□
43	لا تبحثي عن الحقيقة	1947	*
44	الملك أوديب	1949	
45	الصّندوق	1949	*
46	دقّت السّاعة	1950	*
47	الشيطان في خطر	1951	*
48	بين الحرب والسّلام	1951	*
49	لكلّ مجتهد نصيب	1951	*
50	الأيدي النّاعمة	1954	*
51	إيزيس	1955	
52	نحو حياة أفضل	1955	*
53	صاحبة الجلالة	1955	*
54	الصُّفقة	1956	
55	لعبة الموت	1947	
55	أشواك السّلام	1957	
57	رحلة إلى الغد	1958	
58	السّلطان الحائر	1960	
59	يا طالع الشجرة	1962	
50	رحلة صيد ــ رحلة قطار	1962 و 1963	
61	الطعام لكلّ فم	1963	
62	شمس النهار	1965	
63	الورطة	1966	
64	مصير صرصار	1966	
65	كلّ شيء في محلّه	1966	

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

66	بنك القلق	1967	
67	هرون الرشيد وهارون الرشيد	1969	

— المسرحيات ذات النجمة * نشرت في مجموعة « المسرح المنوّع » ، 1956 .
(وهي 21 مسرحية)

— المسرحيات ذات المربّع نشرت في مجموعة « مسرح المجتمع » 1950 .
(وهي 21 مسرحية)

أهمّ ما كتب عن مسرح الحكيم

كتب

أدهم ، إسماعيل : توفيق الحكيم ، القاهرة 1945 .

مندور ، محمّد : مسرح توفيق الحكيم . الطبعة الثانية ، القاهرة 1966 ، 180 ص .

مصطفى ،أحمد: توفيق الحكيم ، أفكاره وآراؤه ، القاهرة 1956 ، 150 ص.

مقالات

الصيرافي ، حسن : بيجماليون في الأدب العربي ، المقتطف ، جانفي 1943 ، ص ص 103—116 .

Astre, G. A. = Le théâtre philosophique de Tawfîq al-Hakîm, dans Critique, fasc. 66, nov. 1952, pp. 934-945.

Papadopoulo, Alexandre = L'œuvre de Tawfîq al-Hakîm, dans Etudes Méditerranéennes, n° 6, 1959.

Rizzitano, Umberto = Il simbolisme nelle opere di Tawfîq al-Hakîm, dans OM, vol. XXVI 1946, pp. 116-123.

idem = Il teatro arabo in egitto opere teatrali di Tawfîq al-Hakîm, ibid, vol. XXIII, 1943, pp. 247-266.

idem = L'alberto del potere commedia di satirica politica delle egiziano Tawfîq al-Hakîm, ibid, vol. XXIII, 1943, pp. 439-447.

Hamadi BEN HALIMA = Les principaux thèmes du théâtre arabe contemporain (de 1914 à 1960), Tunis, 1969, 334 pages.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أعداد خاصّة

الهلال ، العدد الثاني ، السّنة السّادسة والسّبعون ، فبراير 1968 :
(عدد خاصّ بتوفيق الحكيم ، 197 ص له)

أطروحات

نجد الكثير من المعلومات الهامّة عن مسرح توفيق الحكيم في كتاب الأستاذ حمّادي بن حايمة المشار إليه في ثبت المراجع باللغات الأجنبية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com